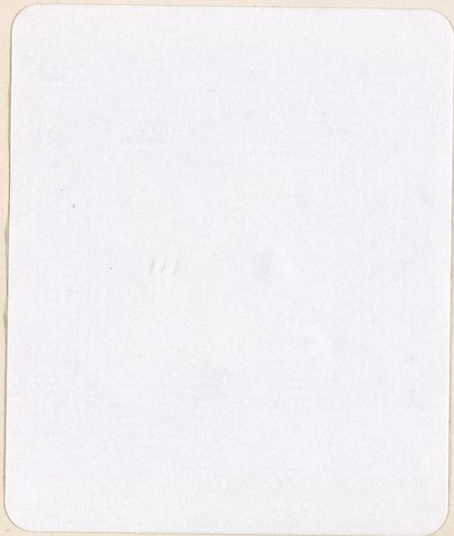


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

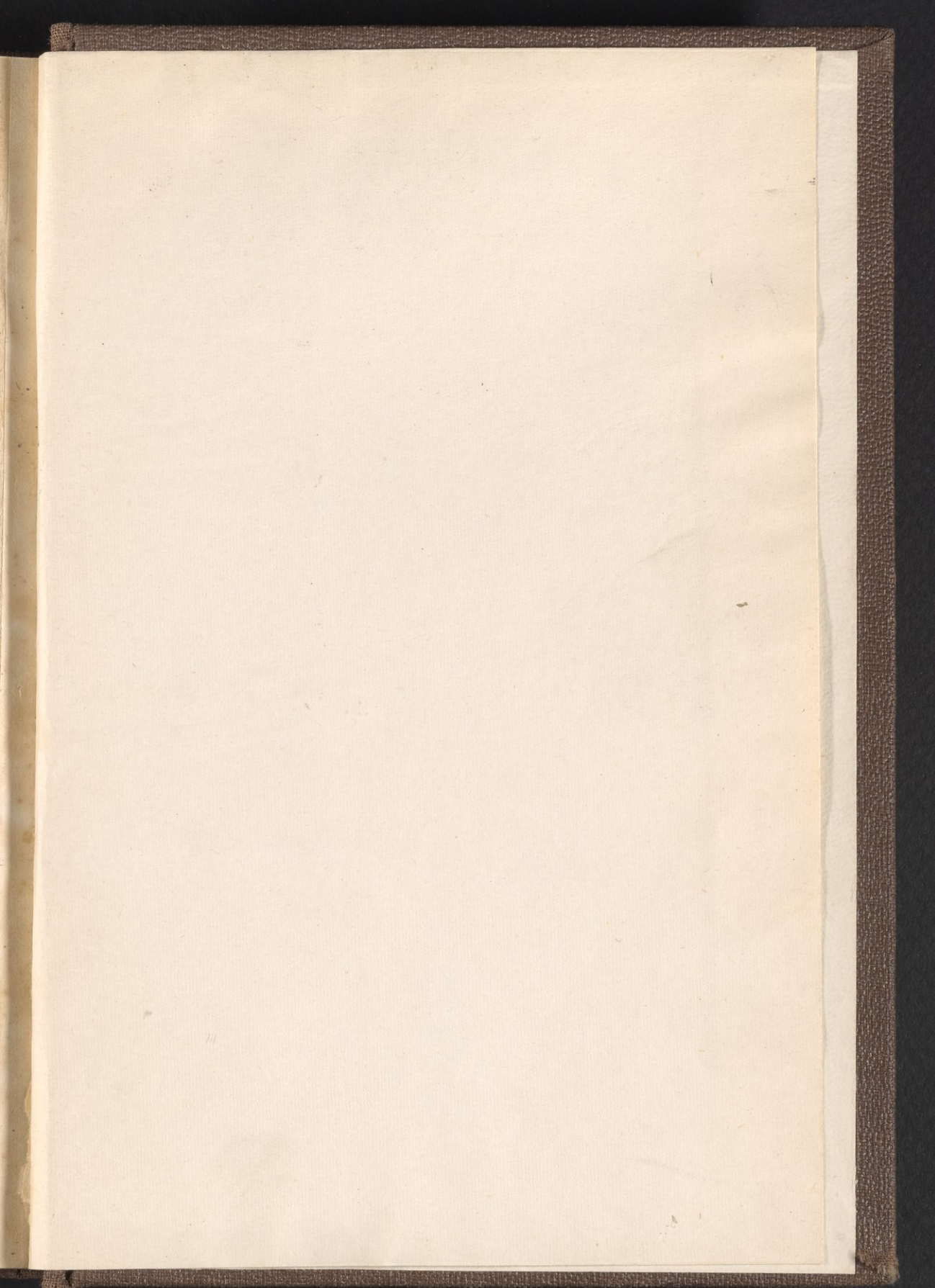


3 8534 01039 9537

11-1-10-10



04-134627



يوم في أوروبا

بقلم

أحمد عطينة

مؤلف لندن ، برلين الخ

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

مكتبة الانجلو المصرية
٢٤ شارع قصر النيل بمصر

مطبعة حجازى بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠

D. 921
A75X
1937

914
ah52d

914
س.م.ع

الطبعة الأولى

أكتوبر سنة ١٩٣٧

21159

كلمة للمؤلف

قد يكون هذا الكتاب في غير حاجة إلى مقدمة ، لأن
الكتب — كما يقال — تقرأ من عناوينها .

بيد أنه قد يلتبس عنوان هذا الكتاب على القارئ فيظن
أن وراءه سرّاً وقصة ، وقد يظنه لونا من ألوان الابتكار التي أخذ
بها الناس ، من كتّاب وغير كتّاب في بث آرائهم في هذه الأيام
ولكن الحقيقة غير هذا ؛ إذ ليس وراء هذا العنوان سر
مكون أو قصة خفية ، وليس هو بمحاولة في ابتكار العناوين
الطريفة ، إذ أن عنوان هذا الكتاب هو الكتاب نفسه .

وليس هذا « اليوم » الذي تخيرته مادة لهذا الكتاب من
الأيام الممتازة المشهودة بل هو ككل يوم قضيته في أوربا ، بل
إنه على الأصح صورة سريعة لعشرات الأيام ، بل لمعات الأيام التي
عرفت فيها أوربا !

إن القارئ ليعجب حين يطوى الصحيفة الأخيرة من هذا
الكتاب ، كيف يجراً كاتب على تصوير ناحية تافهة من حياته
ليس فيها ما يذكر أو يؤثر ؟ !

ولكن هذه النواحي التافهة في حياتنا ، هذه النواحي
المنسية المهجورة هي التي نعيش في ظلها يوماً بعد يوم وعاماً بعد
عام ، وكل مادونها مهما كان عظيماً فآخر أفهوا طارئاً عليها غريب
عن طبيعتنا الإنسانية . .

١٠٤

فهرس

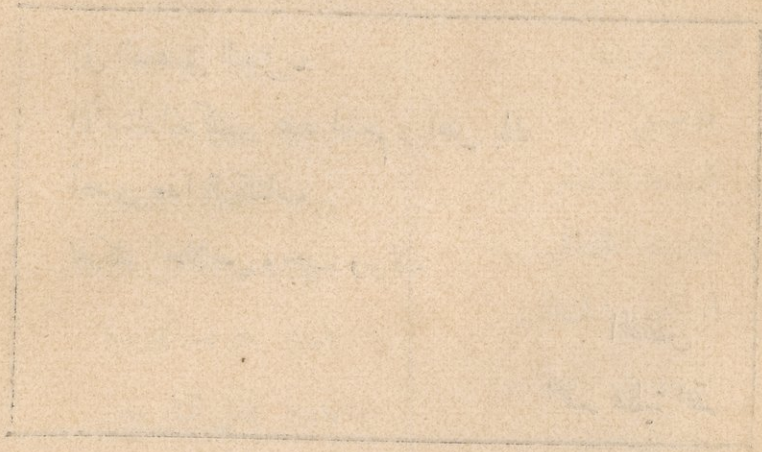
النوم النوم . .	٣٣	كلمة المؤلف	٣
طالب وطالبة	٣٤	فهرس	٥
تطفل . .	٣٥	إهداء	٧
مطاعم الطلبة	٣٧	يوم من الأيام	٩
وجوه معروفة	٣٨	ميوخ	١٠
الزميلة	٣٩	شتاء وصيف	١١
الصراع مع النوم ! . .	٤١	أجراس الظهر	١٢
عالم الخدم	٤٣	حب استطلاع	١٣
من المطعم إلى الأسعاف	٤٥	المرأة	١٤
مصريون . .	٥٠	الرجوع إلى المدينة	١٦
طيور الصيف	٥١	بائعة الموز المثالج	١٧
رطل من البرقوق	٥٣	الجندي المجهول	١٨
مفاجآت	٥٤	شمس تشرق	٢٠
تحت المطر	٥٥	غريب . .	٢١
لعب . .	٥٧	الكتب الرخيصة	٢٢
بلد الغريب	٥٨	أمام بائع الأحذية	٢٣
خلف المرأة	٦٠	الغذاء	٢٤
في أرض الله	٦٢	بجانا ! . .	٢٧
على مياه البحر الأسود	٦٣	طاغية الخبز	٢٨
اسطنبول	٦٥	الخبز الأسمر	٢٩
في ظلام السينما	٦٨	في سبيل الحلوى	٣٠
		بائع لعب	٣٣

حمى السفر	١٣٩
حديث التذاكر	١٤٣
أجنبية	١٤٤
الجواز الضائع	١٤٨
على الحدود	١٥٠
الأجانب في بلادهم	١٥٥
ليالى القطار	١٦١
مفاجآت الليل	١٦٥
في الصبح	١٦٨
فن السفر	١٧٠
حكايات النسيان	١٧٢
الحذاء المفقود	١٧٤
عودة الى الرفقاء	١٨٠
حرب كلامية	١٨٢
فعل التاريخ	١٨٧
الدين	١٨٨
ديون قديمة	١٩١
امام المصرف	١٩٣
هواة الأرقام	١٩٥
الى البحر	١٩٧

المحطة ثانيا	٧٠
أكاذيب الدعاية ..	٧٢
شارة الحصاد	٧٤
المساومة	٧٨
قرار جديد	٨٢
عدة السفر	٨٤
شاي الساعة الخامسة	٨٦
فيرستنهوف	٨٨
حكايات؟ الشاي؟	٩٠
أيام كولون	٩٣
موسيقى	٩٦
الساعة الثامنة	١٠٤
فلسفة الحقائق	١٠٦
أمراض الحقائق	١٠٩
عودة الى الخطاب	١١٢
مشرب اللبن	١١٥
فتاة على الدانوب	١١٨
ذكرى فاجعة	١٢٦
القطار الأخير	١٢٧
الهجوم	١٣٤
الرحيل	١٣٧

إلى الصديق النبيل ،
الأستاذ الدكتور عبد المنعم رياض بك
أهدى هذا الكتاب
تذكار إخلاص وحب وولاء.

المخلص
أحمد عطية الله



يوم من الأيام .

لم يكن اليوم الأول من شهر أكتوبر الماضي يوماً يمتاز
عن غيره من الأيام ، حتى أجعل من أخباره مادة لكتاب
مثل هذا .

ولكن وجه العبرة فيه أنه يوم من الأيام ؛ من الأيام التي
نعيشها لنسأها، وإذا ذكرناها ، فأننا نذكرها كما نذكر كل شيء
تأفقه يمر بنا ، إنه يوم من تلك الأيام التي تصل أمسنا الذاهب بغدنا
المقبل . وقد يكون هذا اليوم عيداً لعبد من عباد الله السعداء
المجدودين ، وقد يكون ذكرى لحدث سياسي يعرفه تلاميذ
المدارس من كتب التاريخ ، قد يكون هذا أو ذاك ، ولكن
خيرهُ وشرفهُ ليس إلا ظلاً عارضاً يتقلص ويمتد .

لم تكن ميونخ في ذلك اليوم خيراً منها في غيره من الأيام ،

وليست ميونخ من البلاد العزيزة على نفسى حتى أفرد لذكرا أيامها
فصولا وكتبا ، وليست هي كذلك بالبلد السقيم المجدب الذى
لا نذكره إلا فى ساعة عابسة سوداء .

ومع ذلك ليس نائبا أن يجعل لهذا اليوم - من شهر
اكتوبر - ذكرى نشيد بها تطوعا كما يشيد شاعر بذكر مجهول
صادف فى تجواله عرضا . . !

ميونخ . .

وجدت ميونخ فى ذلك اليوم - اليوم الأول من شهر
اكتوبر الفائت - كما عرفتها من قبل . وقضيت فيها يوما
واحداً من صباحه الباكر إلى هزيعة الثانى ، وهذا تقليد
سلكته ثلاث سنين متواليات كلما هبطت ميونخ ، وما أهبطها
إلا وأنا فى طريق الأوبة من الغرب إلى الوطن .

وأصبح تقليداً كذلك أن تقابلنى ميونخ ندية العين فى
ذلك التاريخ من كل عام ، ولعلها دموع اللقاء مشوبة بدموع
الوداع كما يصورها الشعراء ؛ وما دموع الشعر هذه إلا مياه المطر
الدايقة التى تبيض بها شوارع المدينة وتجعل متعة الغريب فيها
محدودة ، وتجواله عسيرا .

ولم يكن ذلك اليوم يحمل من تذكارات أيام الصيف شيئاً ، فقد كان قارص البرد ، عاصف الريح ، مطراً هتافاً . وكانت ميونخ تبدو يومئذ كأنها تستقبل صميم الشتاء في أقصى أيامه ، وما فتئت نوافذ المتاجر تعرض أزياء البحر ، وما زالت الواح الاعلان في الميادين تدعو الناس إلى الفرار من لفحات الصيف في المدينة !

وما كان أشد قسوة برد ذلك اليوم على حدائق الجمعة في مدينة الجمعة ! لقد كانت تلك الحدائق الفسيحة في مأتم حثاً ، وكانت نقرات الأمطار على موائدها الخشبية المهجورة لحناً حزيناً مفاجئاً . ووقف خلف النوافذ الزجاجية المغلقة عشرات الخدم بملابسهم الصيفية البيضاء يشاهدون هذه الفاجعة بسكون وحسرة . هل انقضى الصيف ؟ وهل سوف تهجر هذه الآلاف من المقاعد المصفوفة تحت أشجار اللندن حتى تدور الأيام دورة سنة كاملة ؟

لقد كان ذلك اليوم حاسماً ، لا يعرف التردد أو الجمالة ، لذلك كان فظاً إذ دهم الناس على غرة ، بيد أنا قد نجبه لهذا

السبب نفسه لأنه كصاحب المبدأ الذي لا يقبل المساومة ولا المداهنة .
وهكذا نسئنا الصيف وأيام الصيف ، ما بين يوم
وليلة .

أجراس الظهر

عند ما دقت أجراس « الزات هاوس » لم يكن
هنالك ما ينبىء بأن اليوم قد انتصف حقا . إذ الشمس
مافتتت محتجة غائمة ، والبرد يكاد ينفذ إلى صميم العظام فلا
يشجع سائراً على التلكو ، وكان الصباح الباكر قد أبى إلا
أن يمتد إلى وقت الظهيرة وهكذا كان .

وعند ما تأخذ أجراس البلدية هذه تدق ، يجتمع حول
الطرق التي تؤدي إليها مئات النظارة من أهل ميونخ ومن
الهابطين إليها ، لمشاهدة هذه الأجراس ذات التماثيل القديمة التي
تشبه تماثيل كتدرائية سان ماركو في البندقية . هذه التماثيل
التي لا تدل على دقة في الصناعة ولا ابداع في الفن ، هي أشبه
شئ بدمى الأطفال الفطرية التي تدور إذا ضغط على أطرافها
وترفع أيديها بحركة بهلوانية سخيفة .

وهكذا درج الناس في ميونخ على الاعجاب بهذه الأجراس
والافتتان بنغماتها ، وإذا درج الناس على شيء فمن العسير أن
تقف عبادتهم عند حد . وبين هؤلاء الواقفين تجد الساحح
الأمريكي ينظر باهتمام حيث تحملق مئات من الأعين ، يحاول
أن يكتشف جمالا أو جلالا فيها . وهو الذي عاش في عالم تقدمت
فيه الصناعة والصياغة حتى ، أن هذه التماثيل لتبدو في عينه
شوهاء قبيحة كأنها عبث اطفال .

ويمر مواطن على هذا الجمع الحاشد ، فيستوقف نظره وقوف
هذا الأمريكي وعنايته الفائقة بهذه الأجراس ، وهو الذي يمر كل
يوم بها فلا يرى فيها جديداً ، لكنه وقد رأى هذه العناية من
الأجنبي يشعر بأن سرا من أسرار الجمال قد خفي عنه طوال هذه
السنين ، حتى جاء هذا الغريب فأزاح ستره عنه . فينضم إلى هذا
الجمع حتى لا يؤخذ عليه أنه أقل تقديراً للفن وتمييزاً للألوان الجمال .

حب استطلاع

والألماني بطبيعته محب للاستطلاع إلى حد يستحيل فيه
هذا الحب تقيصة من النقائص ، ومرضاً من أمراض النفس .

فهو يستهويه الغريب ولو دعاه ذلك إلى أن يقف موقف ذلة
وخسة ، وهو في نشوته لا يحس بمثل هذا الموقف النابي .

وهذه الطبيعة قديمة العهد عميقة الأثر في نفس الألماني ،
فقد قرأت فيما قرأت عن كاتب أمريكي زار برلين منذ قرن
مضى ، فذكر أن عربة وقفت مرة أمام أحد الفنادق ، و بينا
كانت صاحبها تعد نفسها للنزول وتحاور السائق عن الأجر ،
كان قد اجتمع من السائرين من يكفي لتنسيق صفين من النظارة
ما بين العربة وباب الفندق ، وكان من بينهم عجوز راح يجلو نظارته
بمنديله حتى يستمتع باقصى قدر من هذا المنظر الذي لم يكن فيه
من جديد . . . !

وليس غريباً أن تقابل في عاصمة كبيرة كبرلين ، ذلك الذي
تكشف فجأة أنه كان ينهيك بنظره انتهاياً ، والذي ترى في
أساريه رغبة ملححة للحديث إليك ، وتحس بأنه يجاهد ألماً عميقاً
كالذي ينتاب كل صاحب حاجة قاسية .

المرأة

والمرأة لا تتورع من أن تخطو في سبيل متعة الاستطلاع

هذه حد المجاملة والعرف ، وهي في ذلك مدفوعة بغريزتها النسوية
القاسية . فقد يحدث أن يجلس غريب شرقي إلى جماعة من
هؤلاء وهم في غفلة عنه لسبب من الأسباب ، فإذا ما أضيء المكان ،
أو صممت الموسيقى ، أو انتهى الحديث الشائق ، وتلفتت السيدة
الجالسة فجأة ووجدت هذا الغريب الذي لوحته شمس الشرق ،
فغرت فيها وجحظت عينها ، واختنقت في حلقها صيحة لو وجدت
سبيلها إلى الهواء لدوت كالصفير ..

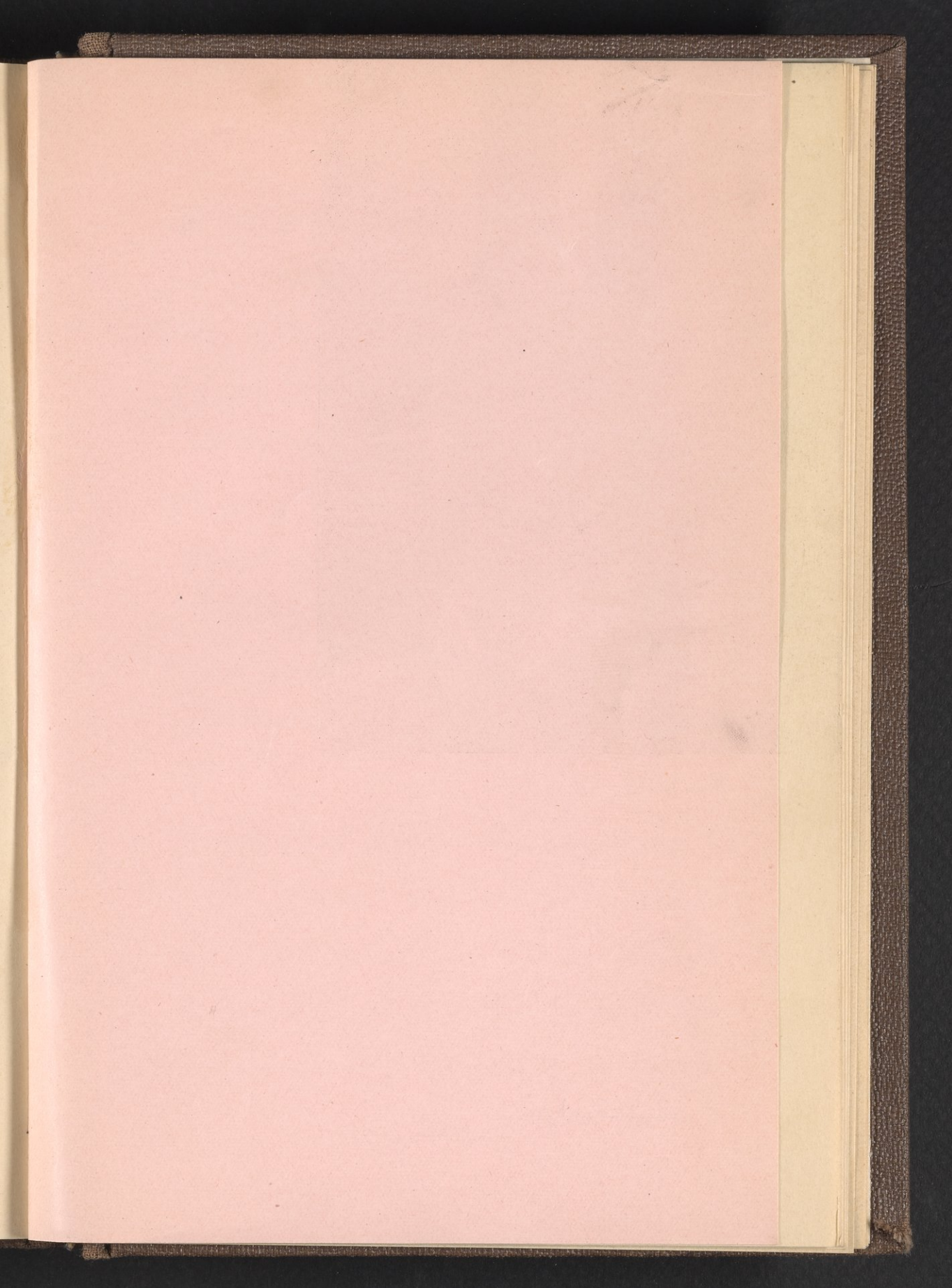
فإذا مرت هذه الموجة النفسية ، استحوالت نظرات الفرع
إلى نظرات أقل حدة ؛ ولكنها مع ذلك لا تفقد شدتها وعنفها ،
تشعر بها كأنها تنفذ إلى صدرك وتدفع الدم إلى عنقك . وأنت
حيال هذه السيدة عاجز ضعيف الوسيلة ، ليس لك أن تزجرها
على هذا التطفل ، ولا أن توجه نظرها إلى شيء آخر ، بل إن
تطفلها يزيداد شدة إذا ما فتحت لسانك وتكلمت ، فتحملق إلى
شفتيك كأنها تحاول أن تكشف كيف تتلوك الألفاظ وكيف
تخرج المقاطع والكلمات .

كانت دقات الأجراس الاثنتا عشرة تسبح في فضاء ذلك
اليوم الصقيع ، فجعلتني أتمثل تلك الجموع المكتظة حول الرات
هاوس ، وأنا في طريقى إلى المدينة بعد جولة على نهر الأيزر ، وهذا
اليوم البارد له جماله بين أشجار الحدائق التى تدوى بينها الريح
القاسية ، فلا ترى تحتها إلا عابر سبيل يهرول إلى ملجأ أمين .
وفى مثل هذا المكان الذى هرب منه الناس يحلولى أن
أمهل إذا شعر بشيء من الزهو والكبرياء ، عندما اتحدى بهذه
الخطوات الثقيلة المطمئنة . راكب الدراجة المسرع فى طريقه ،
لأننى أحس بأن هذا التثاقل سيثير فيه نوعا ما من التفكير ،
وأيا كان هذا التفكير فان فيه الكفاية لارضاء شهوة المكابرة
هذه فى نفسى .

وتحت شجرة فى هذه الغابة ، جاست سيدة عجوز تبيع
الفاكهة فى هذا الجو البارد الثلوج ، جلست بسكون واطمئنان
كأنها لاتأتى أمراً غريباً نابياً ، فمن الذى ترقبه السيدة أن
ينعطف عليها فى هذا المكان الموحش القفر ليشتري منها فاكهة
كادت تتلور من برد ذلك اليوم ؟



أجراس الكنيسة



مررت عليها وهي مطمئنة هادئة واثقة بنفسها وبأثمارها فلم
يثر تلفتي إليها أكثرًا ولا اعتباراً ، وأنا أعجب لمن سوات له نفسه
أن يأكل من ذلك الموز المتلوج في يوم مقرر مثل هذا ؟ حتى إذا
وصل تفكيري إلى هذا الحد أحسست برغبة في أن أكون ذلك
الرجل الذي يأكل الموز المتلوج في اليوم المقرر ، أردت أن
أكون ذلك الرجل الذي يتحدى افكار الناس ولو كان هو نفسه
صاحب هذه الأفكار . . !

وهكذا ذهبت إلى هذه السيدة لأشتري منها شيئاً من
الموز ، فوجدتها كما مررت بها ، لا باسمه ولا متبرمة ، لا متسائلة
ولا متعجبة ، وتقدها ثمن ما اشترت وهي تضع موزتين في
جراب من الورق ولا تسكاد ترفع عينها إلى مكاني .

ثم إنني سرت متمهلاً على حافة النهر ، ووقفت متكئاً
على سورهِ أقضم هذه الفاكهة دون أن أخلع قفازي ، وكان
لذلك الموز طعم خاص ، كأن موز الشتاء فصيلة غير ما عرفت من
قبل من ألوان الموز .

وفي ذلك الطريق عرجت على مكان في وسط الحديقة
ممتبعاً خطوات عدد وافر من النساء يسرن نحوه بعزم دون أن
يتلفتن إلى ما في الحديقة من تماثيل وتذكارات تاريخية . وكان
المكان تحتويه حفرة لا يكاد يظهر منه إلا سور الحجرى ، فكان
ما ظننت أنه ينبوع من الينابيع الدافقة وقد وجد طريقه إلى
هذا المكان الفاتن من الحقائق .

سرت في آخر هذا السرب من النساء — وكن لسبب لم
أعرفه إذ ذاك متشحات بالسواد — فاحذرنا في سلم من الحجر
ينتهى إلى فناء صخرى دائر تتوسطه قاعة مفتوحة الأبواب .
وعلى جدران المكان نقشت الآلاف من الأسماء فى صفوف
رأسية رتبت بحسب حروف الهجاء ، على رأس كل طائفة منها
حرف كبير من الحروف ، فكانت بذلك أشبه شئ بفهرس
كتاب علمى .

الجندى المجهول

كان هذا المكان — بداهة — نصبا من انصاب الجندى
المجهول ؛ وأنصاب « الجندى المجهول » أصبحت بدعة ناجحة

منذ الحرب الأخيرة ؛ في كل مكان تنزله اليوم في أوربا : في
دويلات البلقان ، في اسكتلندا أو في جزائر البحر الشمالى ، أول
ماستقبلك هذا النصب ، حتى لم يعد يشير في نفس الزائر — من تعدد
هذه الأنصاب والتفنن في إقامتها — ان المدفون تحت أرضها بطل
مجهول سعينا إلى تخليد ذكراه على رغم ألقه وعلى غير رغبة منه !
لا ! لقد أصبح الجندى المجهول اليوم شخصية مادية
تهوى الدعاية وتسبق الناس إلى التمجيد بأفعالها . ومن يدرى
فلربما كان هذا الجندى الذى كان من نصيبه التخليد والتمجيد
غير موضع للبطولة والعظمة ؟ !

أليس من المحتمل أن يكون هذا الجندى الذى يرقد
تحت هذه الأنصاب ، وتحفة الزهور التى لاتعرف الزواء ، من
جنود الضرورة الذين سيقوا إلى الحرب خوفاً من عقاب لارغبة
فى القيام بواجب ؟ أليس من الجائز أن يكون هذا الجندى قد
قتل وهو ممعن فى الهرب لامقدمات على هجوم !

و بعد أن راجعت القافلة أسماء معينة على جدار المكان ؛
و بعد أن وضعت باقات من ازهار برية فى أركان القاعة الفارغة

سرن دون توقف وهرن يتحدثن ويتساررن ، وما أن وصلن
إلى الطريق حتى تفرقن ، وسرت بعدهن في سبيلي .

شمس تشرق

وفي ذلك الوقت أخذت الشمس في الشروق من
بين السحب العالية المتراسة ، وكانت تدفعها الريح بقوة هائلة
كأنها سوط سائق جبار ، كانت تبدو على أحواض الورد
المغروسة في هذا المكان كأنها أنوار سيارة تظهر وتختفي في الظلام
ولم يرحم الشتاء ولا الريح تلك الأحواض من الورد الأحمر الكبير
فقد مزقت أوراقه ونثرتها ، وصارت تتقاذفها بها كأنها أوراق
الخريف الناشفة ، تجمعها تحت أسوار الحديقة وتحت أقدام
السائرين .

وفي غير هذا اليوم القاسى كانت تتجمع أسراب من الفتيات
والأطفال حول هذه الأحواض من الورد ، ولكنها اليوم
هجرتها الجميع إلا أسراب الحمام الأسمر ، الذى احتل المقاعد وتجمع
تحت الشجيرات .

وبينا كنت أعبّر ميدان النصر كانت قافلة من السيارات
تتقل الطريق ، حتى كدت أصطدم بسييدة تدفع عربة وهى
تهرول إلى ناحيتى ، وكنت أحس بأن أعين الواقفين على جانبي
الشارع تفحصنى باهتمام . وتنتظر من هذا الغريب أن يخطىء فى شىء
من الأشياء ، حتى يكون ذلك موضعاً لحديث أو سمر أو نقد ، فاذا
حدث واصطدم هذا الغريب بآخر ، قرر الناس عجزه وغبائه حتى
عن السير فى الطرقات ! وإذا حدث وأطارت الريح قبعته
أو انفلتت رجله وهوى على الأرض ! كان ذلك فى نظر هؤلاء
الواقفين حدثاً عجيبياً ؛ وإذا رأى ما أثار ضحكهم نظروا إلى فمه
وهو ينفرج وينطبق بامعان كأنهم لم يسمعوا من قبل
صوت ضاحك . . . ؟

والغريب الذى يجهل لغة جماعة من الناس يحسبه البعض
فى عداد البلاء ، كأنه وقد عجز عن الحديث بلسانهم عاجز عن
كل شىء ، حتى عن الابتسام عند الفرح ، أو البكاء عند الحزن ! .

الكتب الرخيصة

لم أكن أسير بلا غاية ، لأننى كنت أبحث عن مكتبة
عرجت بها صباحا ، عرضت فى نوافذها مجموعة من الكتب
الألمانية الحديثة والقديمة بأثمان مخفضة . وقد كتبت هذه الأثمان
بالمداد الأحمر ، بعد شطب الثمن القديم بشكل واضح لا يدع عند
المتفرج مجالاً للشك أو التردد .

والكتب الرخيصة سحر خاص ، يستولى على المتفرج
ويدفعه إلى التنقيب فالشراء . وأعجب من هذا أنه إذا وجد
من بينها كتاباً سبق أن اشتراه بثمن مرتفع ، فإن نفسه قد تسول
له أن يعيد شراءه بهذا الثمن الرخيص انتقاماً لنفسه من نفسه !
فمنذ أيام معدودة كنت قد اشتريت من برلين رواية جديدة
عن الملكة المصرية نفرتيتى ، وهأنذا أجد اليوم هذه الرواية
معروضة بنصف ثمنها فى نافذة هذه المكتبة ولولا أن ما بقى معى من
المال ومن المكان فى الحقايب لا يكفى لتحقيق هذه الرغبة العجيبة ،
لكنت اشتريت نسخة أخرى من هذه الرواية

وفى النافذة الخلفية ، وجدت مجموعة من الكتب الإنجليزية

القديمة المطبوعة في ألمانيا وفي غير ألمانيا ، فوقفت أخفها بشغف
وعناية مع أنها عتيقة سقيمة ، ولكنني في الحقيقة أحسست بزهو
وغرور من هذا الفحص ، بين هؤلاء المتفرجين الألمان الذين
أعرف ان معرفتهم بالانجليزية لاتزيد عن قراءة عناوين
هذه الكتب .

وأكثر ماتستهويني الكتب الانجليزية وأنا في غير بلادها ؛
فاذا ما هبطت لندن ، كان أحب ما تصبو إليه نفسي أن أقرأ الصحف
والجملات الألمانية يوما بعد يوم ، كأني حريص جد الحرص على
تتبع تطورات الحياة الألمانية وما إليها ، ولكن هذه الرغبة تهبط
كثيراً إذا رحلت إلى ألمانيا نفسها

وربما كان هذا الميل الى المخالفة لونا من ألوان حب
الظهور ، الذي لا يريد بعض الاخوان إلا أن يعرف عنى ؟

أمام بائع الأحذية

وعند دكان الأحذية المجاور وقفت قليلا ، و إلى جانب سيدة
معها طفل في عامه الثاني ، يطل بعيون فارغة نائمة الى زجاج النافذة
حيناً و إلى الواقفين حيناً آخر ، وأمه لاهية تفحص بانتباه شديد
عشرات الأحذية النسوية المعروضة :

ثم انتقلنا جميعاً إلى دكان الجوهري المجاور ، وكان جمع
المتفرجين أمامه وفيراً لاسيما من النساء ، وجاءت السيدة بعد قليل
تجرع ربتها وقد جذت بها المعروضات حتى ألقتها عن طفلها ، الذي
أبدى كل علامات الضجر والسامة من هذا التنقل بين نوافذ
المتاجر ؛ ومع ذلك فلا هو قادر على أن يضع لضجره حدا ولا هي
تحس بما يدور في مخيلة هذا المخلوق الصغير ، الذي لو اسعفته
إرادته لما وقف دقيقة أمام هذه النافذة ولفر إلى وسط الشارع
ليلهب بالمطر الذي أخذ في التدفق من جديد .

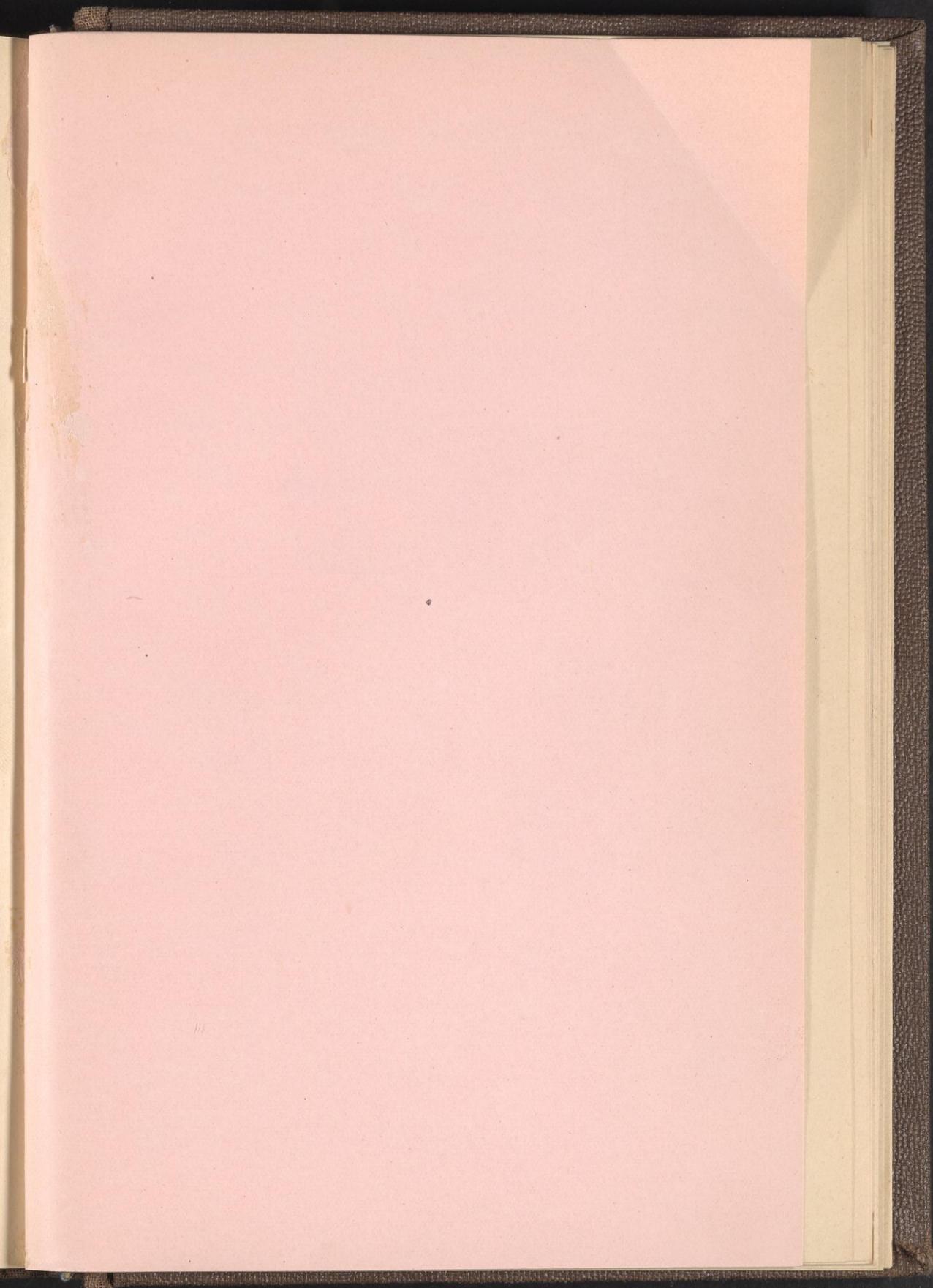
الغدا

لم يعد بد من البحث عن مكان دفيء مريح ، إذ السير في
هذه الشوارع تحت المطر الدافق والريح الباردة ليس بالأمر
الهيّن . وليس أمتنع في مثل هذه الساعة من أن تقضى وقت في
مطعم من مطاعم الجمعة عرفت عنهاميونخ

وفي شارع كوفنجر وهو الطريق الأوسط في ميونخ عدد
وفير من هذه المطاعم ، وفي كل عام أمر بها واحداً واحداً ، وأقرأ
جانباً من قوائمها الواسعة ، التي دونت فيها عشرات من ألوان الطعام



ولم يكن ذلك اليوم يحمل من تذكارات الصيف شيئا ..



بمطبعة الغراء البنفسجية وتداخلت سطورها حتى لم يعد فيها
مجال لكتابة حرف واحد، فجعلته رهيبه كأنها إعلان من
إعلانات المحاكم . . . !

ولكن في كل قائمة من هذه القوائم جانب يعرفه من اعتاد
التردد على هذه المطاعم حيث أطباق « الجِدِك » و « اَشْتَام
إِسِن » التي تعرض بأثمان معقولة مع وفرة في الكمية فيستعاض
بها عن وجبة كاملة . وفي كل قائمة ركن خاص بالوان الأطعمة
النباتية ، وهي أول ما أبحث عنه في كل قائمة ، ولكنها لا تنكاد
تذكر في مطاعم الجمعة هذه التي تطغى عليها الحيوانية أشد طغيان
فتقدم اللحوم في أطباق واسعة كالتى نعرفها في الموالد والافراح
وكان المطعم غاصا مزدحما فلم يدلن لى إلا أن اشترك مع
بعض الجالسين حول مائدة من تلك الموائد الجانبية المستطيلة التي
مدت حولها مقاعد عريضة وثيرة ؛ تشجع الجالسين على النوم
أكثر من أن تساعدهم على فتح الشهية . .

ولم يكن بها الا رجل واحد وزوجه .

وبعد الانحاء والتحية التقليدية ، جلست وأسهرت في

فتح صحيفة أو كتاب كان معي ، غير متلفت إلى هؤلاء الجيران
وغير متلهف على قراءة القائمة . لأني من الذين يخشون تبرم
جيرانهم من محاولة التطلع إليهم ، ولم أبدأ تلفها على قراءة القائمة
شعوراً مني بأن ذلك ضرب من ضروب النهم ، والحقيقة أنني
قد درست القائمة وألوانها قبل أن أدخل المكان ، فلم تكن بي
حاجة إلى تكرار ذلك .

ولم يكن لون السمك الذي تخيرته شائفاً مقبولاً ، ولم يكن
له من ميزة إلا أنه كان وافر الكمية تحيط به كومة من البطاطس
المقلي وتتبعه أطباق السلاطة الخضراء . لذلك كانت هذه الوفرة
داعية إلى الحد من قيمته والاستخفاف بدرجة من الجودة .

وهذه الأطباق الوفيرة ليست مما تتميز به ألوان السمك بل إنها
العادة لاسيما في مطاعم الجمعة ، فهذه البطون الألمانية المتمددة
ليست من فعل الجمعة وحدها بل إن هذه الأطباق الواسعة
الكريمة أثرها الكبير في تكورها وتمدها .

وقضينا فترة طويلة قبل أن تمن علينا الخادمة بما طلبنا من
طعام ، ولم تطق السيدة التي جاورتني صبراً على الانتظار فقربت

الطبق الواسع الذي تقدم فيه قطع الخبز البيضاء والسمراء ،
وأخذت تقطع الوقت في التهام هذا الخبز المجاني .

بجاناً . . . !

والخبز المجاني يقدم في أكثر المطاعم الألمانية ، ولعل ذلك
لأن رغبة الألمان عنه معروفة ، ولولا هذا لوجد الخبز مكانه
في قائمة الطعام كما في فرنسا . وفي أيام الشتاء نشاهد أولئك الذين
يطلبون طبقاً من الحساء الساخنة الرخيصة ويلتهمون بجانبها
عشرات من هذه الأرغفة المجانية ، يصهرونها في هذا السائل
الفائر . ومواطنونا الأعزاء وهم الذين يجعلون للخبز — بحكم
العادة — المكان الأول من طعامهم ، يعرفون هذه الحقيقة ،
فتراهم يتحققون من نظام كل مطعم قبل دخوله ، ولا بدع فان
مطاعم الخبز المجانية لها الأفضلية بل والسحر في عيونهم ، ولو
كانت أطعمتها عالية مرتفعة الثمن ؛ لأن التفكه بقضم الخبز بلا
حساب لذة دونها كثير من ملاذ الطعام نفسه .

والمطاعم الإنجليزية تضيق الخناق على أنصار الخبز مع رخصه
في الخباز ، فان قرص الخبز الصغير يقدم بينس واحد ، وعشرات

من هذه الأقراص لا تكفى لاتمام وجبة كاملة لمصرى مفتوح
الشهية سليم الأسنان والأضراس !

طاغية الخبز

أعرف زميلا لنا فى لندن كان من طلاب الصناعات ، طرق
لأول مرة مطعما ، فقدمت له الفتاة بحكم التقاليد قرصا واحدا من
الخبز ، التهمه قبل أن تدير الفتاة ظهرها . ثم مد يده إلى ماعلى
المائدة من هذه الأقراص ثم طلب غيرها وغيرها ، وهو يكاد
يتميز غيظا من هذا التحكم الجائر فى مكان يدفع فيه ثمنالأكله ،
ولم تجد الفتاة بدا من أن تحضر سلة صغيرة من أطباق الخبز
ووضعتها أمامه .

وكانت دهشتها أعظم من عجب صديقنا ، لأنها سرعان
ما أفضت بهذا السر الهائل إلى زميلاتها وأخذ هذا الخبر يتناقل
من لسان إلى لسان ، حتى أصبحت عيون العاملات فى ذلك
المطعم لا تقتر لحظة عن الحملقة الى ذلك الجبار ، الذى ينقض على
هذه الأقراص دون هوادة أو حذر من التخممة . . !

الخبز الأسمر

والخبز الأسمر أكثر أنواع الخبز شيوعاً في ألمانيا ، بل انهم لا يستعملون الخبز الأبيض الا في مطاعم خاصة ، هذا مع استثناء طعام الافطار . والأرغفة السمراء قبيحة الشكل تبدو كأنها نماذج من الصلصال ، ولكن الألمانى يفضلها عن خبز القمح . ولا تجد ألمانياً يترك منزله في الصباح دون أن يحمل في حقيبته قطعتين من هذا الخبز مدهونة بالزبد ليتناولها في الضحى

ولا يجد الألمانى - أيا كان مركزه الأدبى أو سنه - ضيراً من أن يخرج هذه اللقافة من الخبز إذا حان وقت الضحى ، وهو فى مركبة الترام أو حجرة عمله ، وأن يأخذ فى التهامها .

حدث فى هذا الصيف أن كنت ضيفاً على مدرسة للاطفال فى برلين ، فلما كانت فترة الضحى ونحن فى حجرة من حجرات الدراسة ، هرع بعض الأطفال وأحضروا كوبات من اللبن من مطهى المدرسة ، ثم فتح كل طفل حقيبته وأخرج قطعتين من الخبز الأسمر

ولما جرت العادة بيننا فى الشرق على أن مراقبة الآكلين

ولو كانوا أطفالا أمر غير سائغ ولا مقبول ، لذلك وقفت أفكر
في الانصراف ، وفي أثناء ذلك فتحت المعلمة حقيبتها كذلك
وأخرجت قطعتين من هذا الخبز

وكنت إذ ذاك أتحدث إلى طبيبة نمسوية زائرة وأقترح
عليها الانصراف ، وبيننا أنا كذلك اذا بهذه السيدة الزائرة تفتح
حقيبتها بدورها لتخرج قطعتين من هذا الخبز الأسمر ، وراحت
تقضمها ونحن وقوف نتحدث . . .

وفي ضحى اليوم الثانى ، كنت أخرج قطعتين من هذا
الخبز الأسمر المدهون بالزبد من بين أوراق حقيبتى وكتبها ،
ورحت أقضمها بشهية ولذة . . . !

في سبيل الحلوى

وبعد أن انتهيت من تناول جانب من هذا الطبق العظيم
الذى قدم الى ، أخذت أفكر عما اذا كان من توابعه لون من
ألوان الحلوى ، ومع أننى لم أبدا أكثرا أو استنكارا للخادمة
عندما جاءت وحملت ماخفت من الطعام ، إلا أن تفكيرى
فى هذه الناحية كان جديا ، بيد أننى فضلت الانتظار خوفا من

أن أكرر الطاب فأدفع عن ذلك ثمنا مزدوجا ، وأنا في حاجة
إلى الاقتصاد في هذا اليوم .

وكان أن انتهى الجالسان بجانبى من تناول الطعام وطلبا لونا
من ألوان « البودنج » بالقشدة ، وما أن وضعت الخادمة هذين
الطبقين حتى انصرفت السيدة إلى التهامه ، وكان زوجها متلكئا
غير جاد في أكله ، فلم تُضَيِّع السيدة وقتا بل إنها أدارت وجهها
إلى طبق زوجها وقضت عليه بابتسامة طفيفة ، كانت كل مانال
هذا الرجل المهضوم الحق من جزاء .

وفي أثناء ذلك ، لا تجد بدا وقد انتهيت من طعامك من أن
ترقب عن كذب فم الجالسة اليك وهي تزدد طعامها ، وما أسرع
أن تكشف مبلغ القبح الذى يفيض به الوجه خلال ذلك ،
فالأضراس السوداء التى يخفيها الفم المقبول تبدو الآن قبيحة ،
واللثة الصفراء التى تعطيها الشفاه تبدو الآن مفرعة مقبضة ، ثم
انك لتشاهد الطعام وهو حائر خلف الفم المطبق مندفعاً إلى هذا
الحد تارة وإلى ذلك أخرى ، فتحس بانقباض ونفور .

وفي خلال هذا الجهاد فى سبيل الازدراد والبلع ، تتمثل لك
شخصية الآكل فى صورتها الطبيعية ، صورة لا تنفع فى إخفائها

شفاه مخضبة ، أو خدود مدهونة ، أو أسنان مصقولة ، هي شخصية
الانسان الحيوان . . .

بائع لعب

وقد قطع على حبل هذه الدراسة الفلسفية بائع متجول أخذ
يتنقل من منضدة إلى منضدة . هو شيخ كبير له لحية بيضاء طويلة
زاهية ، كأنها اصطناعية ، مما يستخدم على المسارح ؛ ولكنه كان
بإحدى الفتوة ، باسم الثغر كأنه « سنت كلوز » رسول أعياد
الميلاد إلى الأطفال .

وكان هذا الشيخ كذلك يبيع اللعب ، يحملها في جراب
معلق على كتفه ، ويعرضها بلباقة على الجالسين من صغار ومن
كبار ، وهو لا يفتر عن الابتسام وابتداء الملاحظة الطريفة
والفكاهة المستمحة ، يداعب كل طفل يمر به ، أو يلاعب
كلب السيدة الجالسة . فهذا الشيخ في مرحلته الأخيرة يعيش بحكم
مهنته في جو أبعد ما يكون من هذه المرحلة التي يجتازها إلى
الأبدية ، إنه يفكر ويتفكر فيما يجعل حياة هؤلاء الضيوف
الجدد على الأرض بهيجة ساعة . كم هي مفارقة عجيبة !

والآن وقد مضى هذا الشيخ ، وقد انتهى كل آكل من طعامه وشرابه وتدخينه ، بدأ المطعم في السكون واستولى على الجالسين ملل عجيب ، لاسيما أولئك الذين لا يرغبون في مغادرة المكان إلى الشوارع التي تفيض بالماء .

وأخذت بعض أنوار المطعم الزاهية في الخفوت بعض الشيء ، واستولى على ذلك الخمول الذي يغشاني كلما تناوت طعاما اللهم إلا طعام العشاء . وأحسست برغبة ملحة إلى النوم والتمدد على هذا المقعد الوثير الذي أحمله الآن وحدي .

ولم تعد بي حاجة إلى التدخين أو الشرب ولا رغبة في القراءة أو التفكير في شيء من الأشياء ، وأصبح منظر الجالسين حولي سخيلاً مقبضاً وحديثهم لا معنى له ولا مغزى من ورائه . خمس دقائق فقط هي كل ما أحججه من الراحة ! لقد تخيلت مكانا منزويا في هذا المطعم ، مكانا دفيئاً خافت النور مريحاً كهذا المقعد الذي أجلس عليه ، وتخيلت أنني أتمدد عليه بملابسي كاملة بعد أن نثرت ما أحمله من صحف وأوراق على أرض الحجر . . . بلا أكثرات . . .

كان ذلك الأمل كأنه الحلم ؛ ثم اننى انتقلت إلى نقطة
أخرى بل إلى مشكلة جديدة بالبحث وهى ماذا أنا صانع الآن ؟
وقد انتهيت من الأكل وجلست طويلاً فى هذا المطعم . . . ماذا
أنا صانع ؟ وأين أقضى الساعات الباقية إلى المساء ؟

أين هؤلاء الذين يقولون ان الوقت من ذهب ، وان
الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ؟ أين هؤلاء ليروا بأعينهم
كيف أننى أبعثر هذا الذهب دون أن أعرف كيف أقضى عليه
جميعاً غير آسف ولا نادم !

طالب وطالبة

ولكن هاقد هبط على الفرج ! ، فقد أقبل إلى ناحيتى
ضيوف جدد ، شاب وفتاة لعابهما من طلاب الجامعة ، وقد وجدا
فى مقعدى البعيد عن العيون مكاناً مرغوباً فيه من كل شاب .
ولعل الفتاة كانت ترغب فى أن يكون المكان جميعه لها ،
لها وحدها ! وهذه رغبة تحار فى نفس كل فتاة صبية ، أو امرأة
كاملة . وعندما وجدتُ هذا التردد من جانب الفتاة فى الجلوس ،
خفت أن تفلت هذه الفرصة الذهبية ، وأن أعود لأجلس
بوحدى أفكر من جديد فى النوم والراحة .

لذلك أسرع وفتحت صحيفة وأخفيت وجهي فيها محملا
إليها بعيون فارغة نائمة . وهذا النوع من الجالسين ؛ الجالس
الذي لا يمل من القراءة : فإذا انتهى من الصحيفة عاد إليها ، وإذا
انتهى من ذلك أسبل عينيه ونام ملء جفونه - هذا النوع من
الجالسين غير موضع للحذر أو الخوف من جانب صديقين يتسارران
أو عاشقين حبيبين ، إذا اشتركا معه في مكان كهذا المطعم .

وليس هناك أسمح من ذلك الذي يحس أن من واجبه أن يقيّد
على الجالسين كل حركة ولفظة ؛ والذي يهمل كل شيء حتى
قراءته وأكله ، ليفحص هذين الصديقين ، ويضع كل ايماء وكل
ابتسامة موضع النقد والتقدير . . . كأنه موكل بهذا الاستقصاء
أو راغب في دراسة نفسية خطيرة .

تفضل . . .

وقد يندمج هذا الغريب في جو الجالسين حوله فتراه لا يقتنع
بالابتسام إذا سمع ملحمة مستطرفة ، بل إنه يقهقه بملء حنجرتيه
ويدق المنضدة إعجابا واستحسانا ، دون أن يطلب منه ذلك .

وقد يدفعه ذلك إلى الاشتراك في المجادلة وابداء الرأي ، وقد

يناصب الجالسين بجواره العداً بدون سبب ولا حاجة إلى ذلك .
فينصرف هاأجا ماأجا ، وليس لأحد يد في ذلك اللهم إلا تطفله
السخيف .

وقد يشترك معك هذا الغريب في قراءة صحيفتك ، فإذا
كنت رقيق المزاج لم تجد بداً من أن تتمهل في تقليبها إذا أحسست
بأن عيون جارك ما زالت لا صقة بصورة أو خبر من الأخبار .
هؤلاء المتطفلون يلعبون دوراً هاماً في حياة الشباب ،
فينغصون عليهم وحدثهم وأحاديثهم ، ويسفون آمالهم وأحلامهم ،
ويتداخلون فيما لا يحل لهم بحكم الذوق البسيط .

ولا بد أن الفتاة قد شعرت باطمئنان وراحة ، لأنهما كى
في القراءة ، ولهذا الانصراف المصطنع الذي أبديته نحوها ، لأنها
وضعت حداً لترددتها ، وبدت على أسارىرها الراحة والرغبة في
الجلوس فتقدمت إلى ركن المقعد وجاست بعد أن خلعت معطفها
المبلل ، ونثرت قبعتها وقفازها ثم تبعها صديقها الذي جلس قبالتها
على نفس مقعدى .

وأخذت الفتاة تقلب قائمة الطعام الكبيرة ، وانصرف

الفتى كذلك إلى دراستها وموازنة ألوانها وأثمانها ، ولعله وصل إلى نتيجة معينة لأنه نادى على الخادمة وطلب منها القائمة الخاصة بالطلبة .

مطاعم الطلبة

وللطلبة في كل مكان في أوروبا اعتبارات خاصة ، لاسيما في أثمان المطاعم ، لهذا قلما يبعد الطلاب عن الأحياء التي يعترفون لهم فيها بهذه الامتيازات .

وقصة الحى اللاتيني في باريس وحياة الطلاب فيه ، قصة قديمة معادة . فاذا عبرت السين واحتواك بولفار سان ميشل يستقبلك هذا الحى بمقاهيه ومطاعمه ومكتباته القديمة ، ثم بطلابه الذين يحافظون على تقاليدهم في كل مكان يهبطونه في هذا الحى وشارع السرون وما يتفرع منه من دروب وأزقة ، تتجاوز فيه هذه المطاعم التي تقدم ألوانا من الأطعمة الرخيصة الى هؤلاء المترددين عليها من طلاب السربون ومن مدارس الحى المختلفة .

وحي « جاورا ستريت » في لندن الذي تتوسطه « الكلية الجامعة » يتميز بهذه المطاعم الرخيصة والفنادق الصغيرة التي يمثل

فيها طلاب لندن دورا هاما . فاذا جاء وقت الصيف وقفلت
الكلية الجامعة أبوابها وتبعثها المعاهد المتفرقة في هذا الحى ،
هبطت الحركة والنشاط في هذه المطاعم والفنادق وقد تقفل بعضها
الأبواب إلى بدء الموسم الجديد .

جاءت الفتاة بهذه القائمة المنشودة ، وتركت الطالبين
يدرسناها ويفحصانها على مهل . كانت هذه الفتاة تشبه جد الشبه
إحدى أولئك الخاديات اللاتي يعملن في مقهى « شاتن همل » في
برلين ، حتى شعرت براحة الى النظر اليها والحديث معها .

وجوه معروفة

وهذا الشبه بين الفتيات قد يتقارب الى أبعد حد ، وقد
يختلط على المعجب فيحس بأن هذا الوجه الفاتن معروف لديه ،
وهذه المعرفة في نظره كل السبب في الفتنة والسحر الذي
يفيض به ذلك الوجه . ولكن الحقيقة أن الفتنة والسحر والرغبة
هى التي تولد هذا الشك ثم الشعور بالمعرفة .

فقد عرفت صديقا لنا زار لندن للمرة الأولى و بينما كنت أسير
معه في ميدان ترافلجار أخذ يحملق بشدة وذهول الى مكان فتاة .

بأبعة ، وإذا به يفضى إلى بسر هذه الدهشة ، وذلك أن الفتاة
من معارفه المقربين في القاهرة ، فقد كان يراها كل يوم وإن لم يكن
يتحدث إليها . وأن ما يحار له عقله كيف أن هذه الفتاة التي تركها
من أسبوع في القاهرة ، قد وجدت طريقها كذلك إلى لندن
ووجدت عملاً بهذه السرعة العجيبة !!

وكان صديقي مخلصاً في تصوراتيه ، وصل به هذا الايمان
إلى إمكان حدوث ماظن أنه حدث . ورحت من جانبي افسر
له مبادئ علم النفس في التصور والمغالطات فلم يسمع ، بل أخذ
يعنفني على هذا الخلط في الحديث ، وراح يرميني بأننى رجل
نظريّ عشت بين الكتب ، وأقفلت عيني عن حقائق الحياة
الواضحة المتألقة ، مستلهما ما في كتب علم النفس وغيرها من
نظريات ، كتبها كاتب في حجرة مغلقة بين رفوف الكتب
المغبرة القديمة .

الرميلة .

في خلال هذه المحاوره الفكرية ، أخرجت غليونى من
جديد وملاّته بقدر كاف من التبغ ، لأن المجلس أصبح جديراً

بالتنقيظ والانتباه . وفيما كان الرفيقان يقطعان مرحلة الغداء مرت
بنا فتاة يصح لنا أن نقول بأنها «هيفاء» لأنها كانت طويلة ممشوقة
القدم مسترسلة الشعر تلبس ثوبا أبيض زاهيا وقبعة جذابة مبتكرة ،
وما أن تقابلت عينيها برفيقتي الجالسة حتى أسرع إليها بشغف
ورغبة ، وأخذتا تتبادلان التحية في لهفة وسرعة ووقف الفتى
ينتظر أن تقدم إليه الفتاة كما جرت بذلك العادة حتى مل الوقوف ،
والفتاتان غارقتان في السؤال والحديث والتحية

كانت الفتاة زميلة طالبة ، عرفت من حديثها أنها مجرية
قد تركت الجامعة لتتزوج ، وقد مضى على زواجها وغربتها من
حياة الدراسة عامان . عامان طويلان أو قصيران في عالم أبعد
ما يكون من الحياة الجامعية ، حياة الكتب والدفاتر واللبو
البريء .

وما أسرع أن يخاق الزواج الفتاة من جديد ، إن روحها
تتغير ، ان مزاجها يتبدل ، ان ذوقها حتى في اختيار ملابسها يتجه
اتجاهها آخر .

لم يكن عجيبا أن تتقابل الفتاتان بهذه اللفتة ، فلقد أثارت

هذه المفاجأة كل ما تحمل الواحدة منهما من شكوك ! كم تود أن
تجلسا الآن منفردتين بعيدتين عن اذن رجل ولو كان زوجا ؛ لا !
بل ان هذا الزوج سيكون موضع الحديث والسر المفضوح المعروف !

الصراع مع النوم . . . !

وما ان انتهت الفتاتان من الحديث والسلام ، وجلست
رفيقتنا في مكانها من المائدة ، حتى سرى في المجلس جو جديد ؛
فالتفتي لم يكن ليعرف كيف يعلق على هذه المقابلة المفاجئة ، ولا
كيف يقطع استرسال صديقته في التفكير .

ولعلها كانت تفكر في الزواج ، أو في وعد قطعه لها هذا
الجالس بجانبها ، فهذه الصديقة قد أثارت في رأسها هذه الوعود
والعهود وقطعت حبل أحلامها وجعلتها تنظر إلى المستقبل بعين
مغبرة قائمة . فكانت تزدرد الحلوى بلا رغبة ولا شهية وعينها
معمودة بغير شيء معين حتى استولى السكون على المكان .

وشعرتُ بالتعب يستولى على من جديد ، واحسست يبرود
في باطن الأجنان وقد سمرت في وضع واحد حتى أصبح عسيراً
ان أوجه النظر إلى شيء غير غطاء المائدة الأبيض الذي جلب

على النوم بشيء من الحدة ، وأصبحت كأنتى أجاهد شيطاناً
مارداً ، فكتمت تشاؤبى بين أشدائى ولكننى كنت أحس بأن
هذا الهواء الذى يصحب الشتاء قد وجد طريقه من فتحات
العيون .

ثم اننى أخذت أشجع نفسى على الحركة ، فأهز رأسى بلا
غاية كأنتى أريد أن أهرب النوم الذى حط على شعر رأسى ، ثم
أخذت أفرك يدي بشيء من القسوة وأعد أصابعى وعقلاهما مرة
من اليمين وأخرى من اليسار ، وحينما أبتدىء بعدها فردياً ومرة
أبدأ بعدد زوجى .

وهكذا أخذت أفتن فى اثاره نشاطى حتى بدأ الصداع يتطرق
إلى رأسى وحتى أحسست بأننى عاجز عن الاسترسال فى هذا
الجهاد . وفى هذه اللحظة لم أتردد ، بل اننى وجدت نفسى واقفاً
على قدمى ، وأخذت أجمع أوراقى وأقفل أزرار سترتى استعداداً
للخروج فى الهواء ثم أخذت معطفى فى غفلة عن الخادمة ولبسته
بسرعة ولهفة خوفاً أن تقوم هى بهذا الواجب .

وليس أثقل على النفس ممن يساعدك فى غير مجال للمساعدة ،

فارتداء المعطف ليس بالأمر الهائل المعقد الذي يستلزم أن يهرع اليك رجل طويل عريض ليحمله من ورائك وليدلك على موضع الأكام منه كأنك لم تعرف طبيعة هذا المعطف من قبل ، وكأنك لا تلبس ملابسك كاملة في خمس دقائق .

وهذه المساعدة التي تجدها عند ارتداء معطفك ليست الواحدة من نوعها في حياة المقاهي والمطاعم ، بل ان كثيراً من هذه التقاليد السخيفة قد ابتكرها خدم هذه المطاعم لا كتساب حقوق جديدة .

عالم الخدم

وهذه الحقوق التي فرضها هؤلاء الخدم في مطاعم أوروبا وفنادقها هي نوع من تلك الضرائب التي تفرض استبداداً في إبان الأزمات والثورات الأهلية ، لا يرجع في فرضها الى حق ولا في جمعها إلى ذوق أو مجاملة . وهكذا هؤلاء الخدم . . .

فقد ترغب في غسل يديك في بعض هذه المقاهي فيستقبلك رجل أنيق في حجرة أنيقة تعبق فيها رائحة زكية طيبة ؛ تراه وقد هب من مقعده فجأة ، بعد أن وضع الصحيفة التي كان يقرأها إلى

جانبه ، وأنزل نظارته إلى أنفه ، وراح يساعدك في فتح الباب
أو اقفاله من ورائك ويدلك على مكان صنوبر خالٍ مع ان هذه
الصنابير جميعها خالية إذ لم يكن في المكان غيرك ! — ثم يقف
من بعيد يرقبك وأنت تشمر عن ذراعك ، ويهرع إليك كلما
حاولت شيئاً كأن أردت خلع نظارتك أو اخراج منديل من
جيبك .. !

وأنت أثناء ذلك مضطرب مختلف الأطراف من هذا الرقيب
عليك الذي لا يني عن فحصك مرة إثر مرة ، ويتنسم اليك ببرود
وإن كان يلعنك في سره ، ويستخف طريقتك في الاغتسال أو في
تصفيف الشعر ، ويستعجلك بحركاته وإن كان يبدى اليك كل
إعجاب بهذه التؤدة التي تبديها في عقد ربطة عنقك .

وقد يسأم من هذا السكون ، فيروح يرفه عنك — والحقيقة
عن نفسه — بتلك الملاحظات المحفوظة في كل مكان ،
يسألك عن الجو وعن دخول الفصول إلى غير ذلك من لغو
الكلام .

ثم تهيب نفسك للخروج ، ويتهياً هو كذلك لوداعك

إلى الباب ، وقد وضع في طريقك على منضدة أنيقة وبجوار
مطفاة السجائر ، وضع طبقاً به قطع فضية أو برنزية من النقود
— بحسب مستوى المقهى الذى أنت فيه — فتقف أمام هذا
الطبق ومن خلفك الحارس الأنيق ، وكأنك أمام مذبح من
مذابح الهياكل ، فترسل أصابعك فى جيوبك تبحث لك عن
قطعة من مستوى هذه القطع ، وأنت حذر من أن تخرج نقودك
جميعاً فى الهواء لتتخير منها المناسب الصالح ، وأنت فى حراسة
هذا الرجل الذى لا يكل من التحديق اليك .

من المطعم الى الاسعاف

فى برلين ، وفى مطعم اشنجر الواسع الذى يطل على ميدان
بوتسدام جلست أنا وصديقى ع . . . هذا الصيف تناول غداء
الظهر فى الساعة الثالثة .

وكان اليوم صائفاً ، يدعو إلى تفضيل الأطباق الباردة .
فكان نصيبي طبقاً من « سمك المايونيز » فأخذ ع . . يأكل
ويكتب خطاباته التى لا تنتهى ، وأخذت آكل وعينى تتردد
بين الصحيفة وبين رواد المكان من الداخلين والخارجين
فى المطعم .

ثم إنني أحسست بشيء لاصق بين أسناني - لعلها شوكة
من شوكات هذا السمك - نكأتها بلساني فوثبت إلى حلقى
فحاولت جذبها بكل طريقة لا تثير تقزز الجالسين فلم أفجح .
فرحت إلى مغسل المطعم لأحقق هذه الرغبة .

وهناك اكتشفت شخصية ملاحظ المغسل ! رجل متمدن
في الطول ، ينظر بعينين صغيرتين من وراء نظارة مرتكزة على
أنفه كأنه أستاذ في جامعة ، قد أطبق فيه لا يفتر عن ملاحظة
أوكلمة كغيره من ملاحظي هذه الغاسل .

لقد اندفعت إلى هذه الغرفة وأنا أقفل في يدي حتى لا
أزرد هذه الشوكة وقد بدا على وجهي شيء من اللهفة ، فلم
يتحرك صاحبنا من مقعده ؛ لم أضع وقتنا بل وقفت إلى المرأة
أكشف عن مكان هذه الشوكة في حلقى وأجاهد في جذبها على الفور
فلم أفجح ، وهذا الحارس في مكانه يتوردني النظر دون أن
يسألني مساعدة أو يرفه عني بكلمة ، وقد وضع أمامه صنوفا من
أدوات الزينة مما قد يستغل إذا رغب الرجل في إغاثتي .

فلم أجد بداً من أن أسأله عن ملقط يؤدي هذه المهمة فهز

رأسه سلباً ، وسألته عن قطعة من القطن ففتح فمه ليعتذر عن ذلك أيضاً ، فضاق بجموده صدرى فرحت أؤنبه على هذا التخاذل وهو مثل الطب في هذا المطعم الكبير :

ولعل كلامى قد أصاب منه جوابا ، لأنه طلب منى الانتظار وغاب برهة طويلة ، وعاد بصحبة شاب يلبس معظفا أبيض كرجال الطب له وجه مهضوم وشعر منكوش كالعلماء ونظارة ذات اطار اسود غليظ . فلما اقتربا منى أشار الحارس إلى بأن أتبعه ، وفهمت بداهة أن فى المطعم غرفة للاسعاف فى الطابق الأرضى ولا بد أن هذا الشاب ممن يقوم بهذا الواجب الطبى ، وليس أيسر عليه من انقاذ شوكة من حلق آكل إذ لعليها أكثر أنواع الاصابات شيوعا فى مطاعم السمك ؟

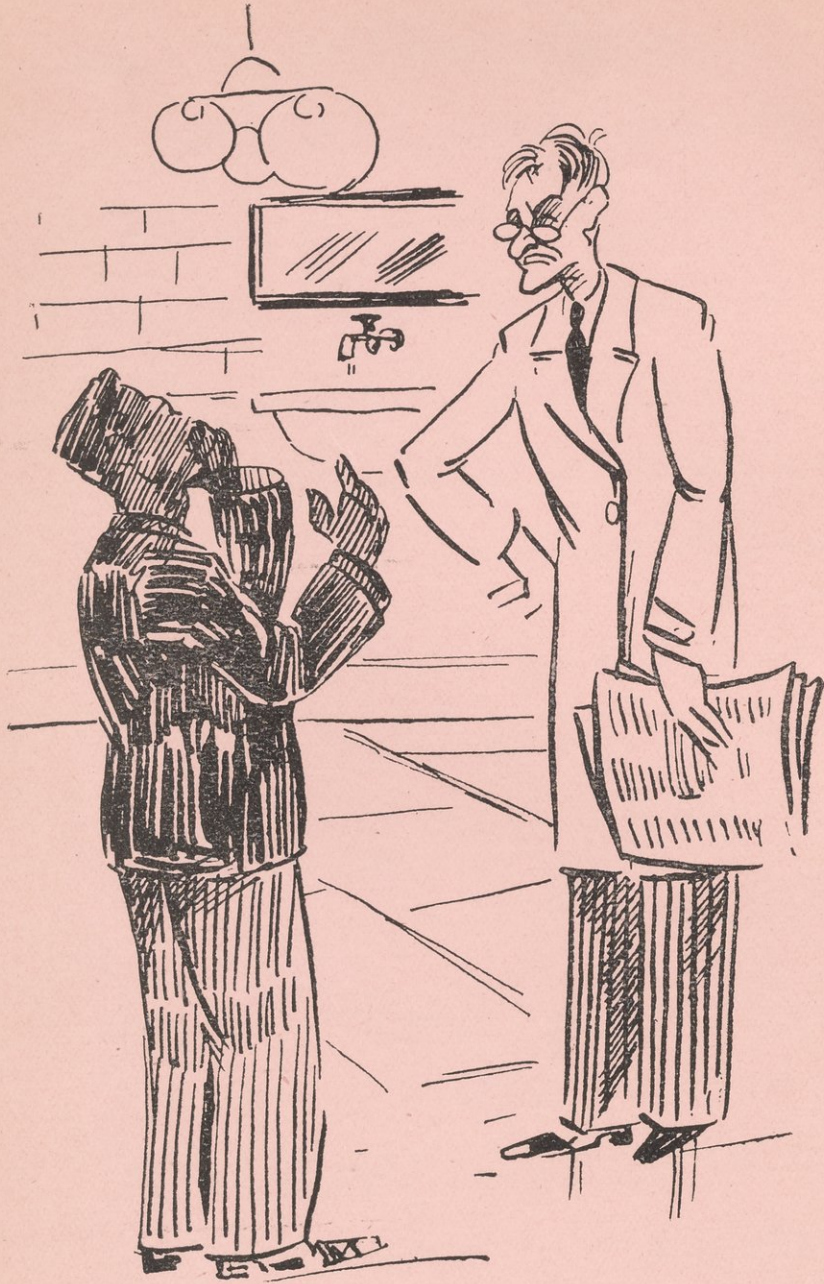
وفىما نحن على السلم الخشبى طوق الشاب ذراعه حول كتفى ، وسألنى أن أنزل بمهل حتى لا أعثر ، ثم سألنى أن نستأجر عربة من عربات التناكس ؟ قلت وماذا تفعل بها ، ألسنا منحدرين إلى الطابق الأرضى ؟ قال كلا ولكن إلى مكان مجاور لهذا المطعم وأخاف ألا تقوى قدمك على هذه الخطوات «

فدفعت ذراعه بغيظ وقد صعد الدم إلى عنقي ، وقالت له
« أتظن أن هذه الشوكة الصغيرة في حلقى قد هدت أكتافى
ونقشت الحمى بين اعضاء جسمى . . . ؟ ! »

فأجابنى ببلاهة : ان هذا رأى ليس إلا ، لى أن أسفبه إذا
أردت : ثم خرجنا من المطعم وعبرنا ميدان بوتسدام وأنا أنظر إلى
كل باب تمر به على أنه المكان المقصود ، حتى انحرفنا إلى طريق
جانبي هادىء ، لمحت فى نهايته باب عليه صليب أبيض : فقال
رفيقتى ها قد وصلنا فهذا مركز الاسعاف فى هذه المنطقة من برلين .

فبدا على شىء من القلق لمح صاحبي فراح يهون على
الأمر من وجوهه جميعها ، ويفهمنى أن هذا العلاج حق من
حقوقى وان دفع ثمنه واجب من واجبات المطعم . فأكدت له
بأننى لست زبونا طارئاً على هذا المطعم بل انه من مطاعمى
المصطفاة المختارة فى برلين . . .

ثم دخلنا المكان ، وراح صاحبي يشرح أغراض بعثته
باسباب إلى الممرض الذى اختفى دقيقة وعاد مع الطبيب . فما أن
جاست وفتحت فى حتى كانت هذه الشوكة الدقيقة قد وثبت



وهناك اكتشفت شخصية ملاحظ المغسل ! رجل متمدد في الطول ينظر بعينين
صغيرتين من وراء نظارة مرتكزة على انفه كأنه استاذ في جامعة . .

Faint, illegible handwriting at the bottom of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

إلى شفتي : فوقفت على قدمي وأنا أشكر الطبيب وأشهد بمهارته
وما ان انتهيت حتى كنت « ومبعوث » المطعم في الطريق إلى
الباب ، ولكنني ما كدت اغلق الباب من ورأى حتى هرع
وراءنا المريض يرجوني أن أسجل اسمي في دفتره . فقلت في نفسي
إن هذا واجبا جدير بالتسجيل . وعندما انتهيت من الكتابة
والتوقيع ، سمعت المريض يسأل الطبيب شيئا ، ورأيت هذا
يكتب « ماركان ونصف مارك »

قلت ماذا ؟ أتتقاضون على اسعاف الملهوفين أجراً ؟ قال نعم
ولم السؤال ؟ فلم تنفع المجادلة في واجبات الحكومات وأصول
الأنسانية . وهون على صاحبي بأن هذا المبلغ سأتقاضاه مع الشكر
من مدير المطعم عند عودتنا . .

ثم أننا عدنا إلى المطعم ؛ فلم تنفع المجادلة أيضاً عن حقوق
الأفراد وواجبات الجماعة . ولم أجد بداً من الاحتفاظ بورقة
الأسعاف كتبها كارليس الآ ، و عند ما ارتقيت السلم إلى الطابق
الأعلى وجدت صديق ع . . وقد انتهى من كتابة عشرين خطاباً
حتى عيل صبره من الكتابة والانتظار

نعود إلى مطعمنا في ميونخ . . لم يعد بدءً من الخروج في هذا اليوم الماطر البارد ولو للبحث عن مقهى آخر أجلس فيه ساعة أخرى إلى إن تشرق على فكرة جديدة .

وفيا أنا بين البابين الزجاجيين ، وقعت عيناي على وجهين عرفت أن صاحبيهما من أبناء الوطن ، ولا بد أنهما قد أحسا بهذا الأحساس فابتسم كل منهما ابتسامة طفيفة وسار كل منا في طريقه . .

وكثيراً ما تثير مثل هذه المقابلة المفاجئة بين المواطنين الغرباء هواجس ما كانت تنبعث من ظلامها لولا المفاجأة ! وهل أقول إن هنالك شيئاً « من سوء النية » يثب إلى النفس قبل أن يدع الإنسان عقله يتسيطر على هذا الموقف المفاجيء ؟

ولماذا ياترى تسبق سوء النية العقل والمنطق بين هؤلاء المواطنين الغرباء ! أهو نوع من الخذر الذي يرسب في نفس الغريب من جراء حياة التجوال أو التشرذم التي يعيشها بين أناس لم يجد منهم عطفاً إلا بمقدار ما يبيديه من جاه وغنى عنهم ؟

فابلت مرة قافلة من المصريين الرياضيين في روما ، وقد
تجمعوا بحماسة بهم ومعافهم ومعداتهم في أحد مقاهي شارع فيتوريا ،
ولقد كانت غبظتي باكتشافهم عظيمة واحسست كأنني قد
هبطت واحة بعد رحلة طويلة في صميم الصحراء !

ولكم كان عجبى عندما وجدتهم قد نسوا حتى أبسط قواعدنا
الشرقية في الجمالة ؛ لقد نسوها بعد حياة أسبوع واحد في أوربا ؟
لعلمهم قد سمعوا أكثر مما يجب عن الحياة الأوربية وعن تقن
النصايين فيها والمحتالين ، فبنوا سياجا كثيفا بينهم وبين كل
غريب يهبط بهم ، ولو كان مظهره وحديثه لا يدل على حاجة
إلى هذا الخذر الشديد .

طيور الصيف

وإذا هلّ الصيف ينتشر مئات من المواطنين بين أركان
أوربا ، لاسيما تلك التي حازت يوما من الأيام رضاء بعض الزائرين .
والمصري بطبيعته ينزح حيث يجد العطف والجمالة فكثير من
المصريين لا يعرفون في أوربا إلا مكانا واحدا أو ركنا من مكان
واحد ، يتوردونه عاما بعد عام دون أن يفكروا في العالم الواسع

الذى يحيط بهذا الركن . فرواد كارلسبار قلما يعرفون شيئاً عن
براج أو برلين ؛ وزوار باريس مجهلون لندن وهكذا .

وهذه الطيور الصيفية التى تهبط أوربا من وادى النيل
على أنواع . فمنهم اما وجيه يرحل إلى أوربالأنها جزء من تقاليد
الاجتماعية ، أو طالب استشفاء مريض أو ممرض ، ثم يأتى
بعد هؤلاء وفود الشباب ؛ الجيل الجديد الذى تعلم فى أوربا
والذى يعود إليها بعدئذ يطالب المزيد من العلم أو استتارة
ذكرياته القديمة .

« وكافيه دى لاييه » فى باريس لها تاريخها المجيد فى حياة
كثير من هؤلاء ، تمر على ركنها المشهور الذى يطل على ميدان
الأوبرا وبونفاركابسين فلا تخطئك وجوه بعض مواطنينا الوجهاء .
يجلس قبالتهم بائع الصحف الذى زين « كشكه » بمجموعة
من الصحف والمجلات المصرية وعشرات من هؤلاء الضيوف
يذرعون الطريق كل يوم مايين بيكادلى واكسفورد استريت
وهايدبارك فى لندن ؛ تجدهم وقد كلت أرجلهم من السير وعيونهم
من التطلع إلى النوافذ التجارية إذ حرمت لندن من متعة المقاهى .

وقد بدا على وجوههم الملل من هذه الحياة الجافة المقيدة ، فلم يجدوا بداً من التلهى بشراء هداياهم وتذكاراتهم من لندن .

رطل من البرقوق

كنا جلوسا في يوم من أيام الصيف تحت ظل شجرة من أشجار القسطل في هايدبارك حديقة لندن الكبيرة . وكان معنا كتاب علمي أخذت أنقرأ منه بينما اضطلع صديقي بمهمة التفسير والتعليق . ومن حين لحين كنا نتطلع الى طوائف المتزهين حولنا وفيما نحن كذلك وقعت عيناى على وجه سائر أحسست بأنه غريب بل مصرى ، ونظر هو بدوره الى حيث كنا ، ولكن كما تتبادل مئات النظرات فى مكان مثل هايدبارك دون قصد أو غاية معينة !

ثم انصرفنا إلى القراءة برهة ، وإذا بهذا الصديق الغريب يمر بنا راجعا ولم يمالك نفسه من التحديق الينا ولعله وقف يستمع لحديثنا عليه يميز اللغة التى كنا نتحدث بها . عند ذلك خاطرت ودعوته بالعربية إلى الجلوس معنا . فكان حدسنا صحيحا ! فقد كان هذا الغريب الكريم هبط لندن بالامس وهو فى ثورة نفسية من الوحدة . .

فقدمنى صديقى إليه كما قدم نفسه ، ثم عرفنا أن صديقنا هو « فلان باشا » المعروف المشهور بوجاهته ، وقد طمست القبعة هذه الوجاهة حتى بدا الباشا الكبير كأنه مريض فى دور النقاهة .

وكان الباشا يحمل وراء ظهره كيساً صغيراً من الورق يبدله بين يديه وهو حائر كيف يتخلص منه . ولما أحس الباشا بأن عيوننا قد كشفت خبيثة كيسه تقدم به إلينا متلعثماً وهو يفتحه ليخرج ثلاث برقوقات زعم أنه اشتراها ليعرف الفرق بين أنواع البرقوق الشرقى والانجيزى ؛ لا لأن ياتهمها فى ركن هادى .
من هذه الحديقة . . . !

مفاجئات

ولا تختم هذه المفاجئات عادة بمثل هذه النهاية السارة ، فقد حدثنى صديقى الدكتور ح . . . حين كان طالبا فى براين بعد الحرب ، انه ذهب فىمن ذهب إلى البنك ليتسلم مبلغا من المال ، وكان جمع الحاضرين كبيراً حتى انهم انتظموا أمام نافذة الصرف فى صف طويل كما يفعل رواد المسارح ، بيد أن تقدم هذا الصف كان بطبيعة مهمة البنوك بطيئاً ، وحدث أن سبقت

الدكتور ح . . في موقفه سيدة سمينة قطعت عليه الطريق وهو
عجل لا يهتم بالانتظار ، ولعله أراد أن يفرج عن ضيق صدره
بملاحظة بريئة إلى رفيق له عن سمن هذه السيدة وعمّا نبت في
وجها من آثار الشعر ، وما كاد ينتهي من ملاحظته حتى تلفتت
إليه السيدة وصبت على رأسه قدرًا كافيًا من الكلام المختار في
مثل هذا الموقف . . وبالعبية ؟

وحدث لصديق لنا في طريقه من باريس إلى ترينتا أن
زامله مسافر ، حكم على نفسه ألا يفتح فيه بخير أو شر في خلال
الرحلة التي دامت ثلاث وعشرين ساعة وصديقنا المصري يكاد
يتميز غيظًا من هذه الوحدة القاهرة .

وما أن وصلنا إلى حيث نزل رفيقه ، رفع هذا قبعته وحياه
بالعبية الفصيحة . . . ؟

تحت المطر

وجدت الشوارع حين خرجت من مطعم ميونخ كما تركتها
صقيعة هائلة ، وقد انتشرت في سماءها المظلات السوداء . والأمطار
ليست مما تعوق سائرًا في أوربا ، ولا تمنع سيدة من التلكؤ

بين نوافذ المتاجر ، ولافتاة من المحافظة على موعد غرام تحت
المياه الداوقة .

ولكنني لم أطق السير طويلا ، فقد مررت في طريقى
بمكتب البريد فوجتته مع الداخلين إلى قاعة دفيئة ممتعة ، احتل
مقاعد الخشبية جمع كبير من الرجال والنساء ، بعضهم نائم !
لاشك أنهم قد هربوا كما هربت من برد ذلك اليوم ومطره .

وكان السيدات الجالسات تقطع الوقت بفتح ما يحملن من
لغافات الورق لمراجعة ما اشترين من المتاجر وانفها من جديد .
كما جلست سيدتان تتحدثان باهتمام وقد اتسكأتا باطمئنان على
المقعد الخشبي كأنهما يجلسان في دارها بجوار المدفأة : لاني
قاعة مكتب من مكاتب البريد . .

ومنذ عامين من هذا التاريخ دخلت هذه القاعة نفسها
وجلست زهاء ساعة على أحد هذه المقاعد ، وقد كنت أحزم
هدية صغيرة لأرسلها إلى مصر فاستعرت الصمغ والمقص من أحد
عمال المكتب ورحت أنثر رشاش الصمغ على المقعد دون قصد
وأبعثر هذه القصاصات وأطراف (الدوارة) حتى استحال المقعد

إلى ركن في فرقة من فرق الأشغال اليدوية في مدرسة
للبنات . . !

لعب . .

وعند نافذة من هذه المتاجر المجاورة وقف جمع كبير من
الكبار والصغار وقد رفعوا مظلاتهم على رؤوسهم - كان هذا
لمتجر مخزناً للعب الأطفال ؛ إذ أن نوافذ هذه المتاجر تجذب أكبر
عدد من المتفرجين ، فالآباء يذكرون أطفالهم عند هذه المتاجر ،
والأطفال بدورهم يدفعون آباءهم إلى الوقوف معهم واستعراض
مستحدثات اللعب .

وتجد من بين هؤلاء رجلاً يحدق النظر باهتمام وعناية إلى
نموذج لقطار حديدى ينظر إليه بلذة عجيبة ، وتراه يدور حول
النافذة ليفحصه من جميع وجوهه . فهذه اللعب « الميكانيكية »
تستهوى الرجال أكثر مما تستهوى صغارهم .

ففي أحد أعياد الميلاد في لندن ، جلسنا في حجرة المائدة وقد نثر
« تونى » الصغير هداياه من اللعب وكانت من بينها طائفة من
هذه القطر والآلات ، وراح والده يعرفه بأصول إدارتها وتسييرها ،

وبعد قليل وجدناه ينصرف عنا ويفرق نفسه في هذا الشرح
والتفسير ، ثم إذا به يدفع الطفل لينفرد بنفسه بهذه اللعب
والأجهزة ، وقد مد قضبانها وأسلاكها على أرض الغرفة وتمدد على
بطنه ، وهو منصرف عن كل شيء إلا هذه اللعب .

ولم تجد مناقضة « توفى » الصغير اذناً عند والده ، وراح
يرجونا لتتوسط بينه وبين والده الذى اغتصب حقاً صريحاً من
حقوقه ، ولما لم تنفع وساطتنا لم يجد الطفل بدا من الانصراف
إلى البكاء والنحيب !

بلد الغريب . .

وهكذا أخذت أقطع الوقت واقتل السأم ، متنقلين متاجر
شارع كوفنجر ونيوهوزر وباير ، والسير على غير هدى ولا
غاية هو كل ما يفعله الغريب ، الذى لم يعقد بعد صلة بأحد أو
بمكان .

وفي ساعات الصباح الباكر تجد هؤلاء الغرباء يجوسون
خلال العواصم التى ينزلونها ، ويضربون فى شوارعها وطرقاتها
قبل أن يستقبل أهلها اليوم الجديد . تشاهد هؤلاء الغرباء فى

الساعة المبكرة يتلکأون على أرصفة شوارع المدينة الرئيسية ،
يتلفتون الى كل شيء ، ويستهوهم النظر إلى كل شيء وهم في
في ذلك لا ينسجمون مع وفود العمال ورجال الأعمال الذين
يهبون في مثل هذه الساعة الى أعمالهم ، لا يتلفتون ولا يتلکأون ،
لا يكادون يظهرون من منازلهم حتى تتلعمهم الشوارع والميادين
في لحظات ..

أما الغريب فيستيقظ كذلك في الساعة المبكرة قلقا مهتاجا
لا يطيّب له نوم أو أنزواء في غرفة ، وقد بدا النهار يفتح أقفال
المدينة التي هو ضيفها ، وما الذي يجعله يحمل آلام الصبر وهو
غير مرتبط بقواعد في نومه ويقظته ، ولا بتقاليد في خروجه ودخوله ؟
أليس من أجل نعم الغربية والسفر أنها تقطع الانسان عن
جميع هذه التقاليد القاسية التي لا يرحم في تطبيقها أحد ؟ !

وإذا استقبل الغريب الشارع ، تراه يعجب لأهل هذه
المدينة الكسالى الذين ينامون الى تلك الساعة ، ولا يبدأون
أعمالهم مع الفجر الأول - ثم أليست البركة في البكور ؟ أتراهم
ينامون في مثل هذه الساعة ، والحياة والطبيعة والشوارع الفقراء
تدعوهم وهم عنها في غفوة !

هكذا ينظر الغريب إلى الاشياء ؛ وهكذا تراه وقد
خذه تكاسل الناس ينصرف إلى دراسة الشوارع الجامدة ؛ إلى
جدرانها وأسوارها واعلاناتها المملوكة، وأعمدتها المرفوعة، وتمائيلها
القائمة ؛ ثم تراه يتنقل من متجر إلى متجر دون تمييز أو تفضيل
كأنه كتب عليه أن يدرس شؤون التجارة في هذا البلد، وأن
يعرف فيم يتاجر هؤلاء الناس وهم بعد نائمون . .

خلف المرأة

وهكذا أخذت أتقل بين نوافذ هذا الشارع دون تمييز أو
تفضيل ، كأنه كتب على كذلك أن أدرس شؤون التجارة في
ميونخ ! وأكثر هذه المتاجر تعرض أزياء المرأة أو ما يمت بهذه
الأزياء من مطالب ؛ وأكثر هؤلاء المتسكعين بين هذه النوافذ
من النساء .

وبين هذا الجمع الحاشد من النساء أمام نافذه الازياء ، تجد
رجلا واحدا قد لصق وجهه بالزجاج يشاهد بدقة ألوان هذه
الأثواب وأزياءها وأثمانها ؛ تراه واقفاً وحده في مملكة المرأة !
لعله أبله لا يكاد يحس بموقفه ، أو لعله صاحب تجارب مع

المرأة فلم تعد تخزيه نظراتها أو تخجله حلقاتها ؛ أو اعلمه رجل من رجال المادة قدألمته شؤون التجارة ، عن عيون النظارة !

وهذه المرايا التي زينت بها أبواب المتاجر مصيدة لكل امرأة ، فهي لا تكاد تمر على واحدة منها حتى تقف تدقق النظر إلى عينيها ، وترفع يدها بطريقة آلية إلى شعرها كأنها تريد أن تعيد تصنيفه وهي لا تفعل شيئا أكثر من أن تضغط على صدغها !

وأمام نافذة جانبية مغلقة تشاهد رجلا يدقق النظر إلى الأشرطة الباهتة التي تركت فيها شهورا طويلة ، وتراه يرفع أصابعه إلى ربطة عنقه ينظم وضعها ؛ إنها تلك المرأة المختلفة وراء الأشرطة وليست الأشرطة هي التي يبحث عنها ، أن رجولته تأتي عليه أن يقف ذلك الموقف أمام المرايا العريضة الواسعة التي زينت بها أبواب المتاجر ، فراح يتصيد ذلك في خفية .

وفي ميدان كارل وقفت مع الواقفين حول عربة بيضية مغلقة ، من عربات الرحلات التي تشد إلى السيارة وتستحيل إلى شبه كوخ جهز بأدوات البيوت من أسرة ومقاعد

وكان التدافع على رؤية ذلك عظيما ، ويتنافس الناس لا
لان مايشاهدون جدير بالمشاهدة ، بل لأنه أصبح موضعا للمنافسة
والتدافع . . وأدوات الرحلات وأجهزة الاسفار من أمتع ماتراه في
المتاجر الألمانية .

في أرض الله

أن حب الالمانى للاستطلاع وقد عرفناه ، هو الذى يجعل
الميل إلى السفر والتجوال والارتحال إلى مجاهل الأرض وغرائب
الشعوب متعة لاتدانيها عنده متعة أخرى بجانبها ! وحيثما أنت ترى
الألماني — الشيخ والشباب والمرأة — يحمل حقيبة الظهر الصفراء
معلقة بين كتفيه ، حتى أصبحت زيا قوميا من أزياء هذا
الشعب !

وهو في رحلاته حريص على اقتناص كل فائدة ترفع رأسها
حوله ، فهو يدرس ويبحث ويمحص قبل أن يبدأ رحلته ، وهو يدرس
ويبحث ويمحص أثناء رحلته ، وهو يفعل ذلك إذا أب من غربته !
ومن النادر أن تجد الألماني يتعشق السفر إلى انجلترا ، أو
إلى باريس أو إلى أمريكا ، بل أنه يحلم بالبسفور ، باليونان

القديمة ، باهرام الجيزة وبتماسيح النيل ، ثم بافريقيا السوداء
المظلمة وبالصحراء التي لانهاية لرمالها وسماها ! هذا هو الأمل
البديع الذي يجيش في صدر كل شاب الماني ، والذي يسعى إلى
تحقيقه بكل ما تيسر له من وسائل .

على مياه البحر الأسود

كانت الساعة الحادية عشرة مساء . عند ما بدأت الباخرة
الرومانية تهجر مرساها في كونستنزا متجهة جنوباً إلى البسفور ،
وبين الجمع الخاشد الذي وقف يشاهد الميناء وهي تباعد عنه
السفينة السارية ، ما كنت لتمييز عشرات من الوجوه الألمانية
الشابة التي كانت تروح وتغدو على ظهر السفينة .

حتى إذا تفرق الجمع وبدأ المسافرون يتعرفون أماكنهم ،
تجمع هؤلاء الشبان - ثلاثون منهم - على ظهر الباخرة حول
رجل في مثل لباسهم امتدت ذقنه البيضاء حيث ربطة عنقه
وراح يتحدث بصوت واطيء كأنه لا يلقى سلسلة من الأوامر
والنواهي والزواجر !

وما أن انتهى حتى اندفع كل واحد منهم يحل أمتعته

المعلقة على ظهره ويفرش ظهر السفينة الأجرد إعداداً للجلوس والنوم ، ثم بدأت أصوات الملاعق والأطباق المعدنية ترن في هواء الليل فقد بدأ كل واحد يعد طعام العشاء وقد جلس كبيرهم في وسط دائرة كبيرة يفعل مايفعلون .

كان هؤلاء جمعا من طلاب الصحافة في إحدى الجامعات الألمانية الجنوبية ولعلها كانت ميونخ ، وكان هذا أستاذهم ، يقودهم الى رحلة في اسطنبول ثم الى أثينا .

حتى اذا فرغ الجمع من العشاء وردت الملاعق والأطباق إلى مكانها ، بدأت الكتب والدفاتر والأقلام تجد طريقها إلى أرض المكان الذي فرش بالأغطية الصوفية . وراح كل واحد من هؤلاء الصغار يتم قراءة كتابه ، أو يراجع ما كتبه أو يدون ملاحظات في دفتره .

وما أسرع أن عقدتُ الصلوة ببعض هؤلاء وجلسنا في أعلى السفينة نتحدث وتساءل وأجيب على عشرات الأسئلة التي كانت تلقى علىّ حتى قارب الفجر الوضوح . ففي دفتر من هذه الدفاتر وجدت تذكارات لكل شيء منذ أن ترك هؤلاء جامعتهم حتى

ذلك المساء ؛ وجدت تذاكر الترام وقصاصات الاعلانات وبقايا
أوراق السفر وطوابع البريد ملصوقة في هذا الدفتر ، وذيلت
بالملاحظات والأعداد من أثمان ومواقيت وأبعاد ومسافات .

ولم يكن يخلو جيب مسافر من هؤلاء الشبان من كتاب
من كتب الرحلات الألمانية المعتمدة ، وقلما تجد كتاباً من
هذه الكتب خلوا من العلامات والخطوط والملاحظات المدونة
على هوامشه ، التي تدل على أن هذه الصحائف قد قرئت المرة
بعد المرة ودرست دراسة مدّكر حريص .

اسطنبول

ثم أقبل النهار وانتصف ، ووقفت بنا السفينة تحت
أقدام اسطنبول ، ووقف هؤلاء الشبان صفّاً يحملون أحمالهم
على أكتافهم وتقدمهم أستاذهم بقميصه المشمر عن أكمامه
وسرواله المنعقد عند ركبته ، حتى خلفوا السفينة في وحشة
مقبضة .

ثم إنني خرجت بعد الظهر أتفرج على اسطنبول الخالدة ،
واحسني من ألوان شرايها الثلوج ، والتهم من حلواها البديعة بعد

أن قضيت شهورا في شمال أوربا . ثم إنني بعد أن أَرْضيت هذه
الرغبة كان أول ماشاقتني زيارته جامع أيا صوفيا العظيم ، فحسبت
خلاله وطفت باركانه وصليت تحت قبته ؛ وفي زاوية سحيقة منه
وجدت وجوه معروفة ، منكببة على أوراق وخرائط ودفاتر فرشتها
على أرض المسجد ؛ وإذا بهؤلاء رفاقنا في البحر جاءوا يدرسون لا
ليتنفروا ، وينقبون لاليهون . فقد قضوا في هذا الجامع وحده
ساعات منذ أن هبطوا المدينة وهم يتذاكرون على هذا النسق
كأنهم يعدون العدة لامتحان ، أو كأن قصة أيا صوفيا تعنيهم
جد العناية فاهتهم عن كل شيء حتى عن المدينة نفسها التي
تحوى أيا صوفيا . .

ولكن هكذا يرى الناس السياحة ، وهكذا ينظر الناس
إلى الاسفار التي قال فيها الشاعر العربي القديم ، أن لها خمس
فوائد لا تزيد ولا تقل ، وكأنه قدرها بميزان لا يخطيء ولا يزل !

لم يعد يجدي هذا التجوال بين المتاجر إلى غير غاية !
وهاقد حبست السماء ماءها ، أو لعسل هذا الماء قد تبلور
حيث هو من شدة برد ذلك اليوم .

وقد كان السير في ميدان كارل الواسع جهادا شاقا مع
الريح التي كانت تنفذ إلى الأطراف والاكتاف . ولماذا لا تقضى
هذا الوقت من النهار في دار دفيئة من دور السينما لاسيما دور
السينما المحلية الصغيرة التي لا تكون في مثل هذه الساعة مزدحمة
إلا بالنساء العجائز والأطفال ممن لا يجدون ما يعملون في
منازلهم في مثل هذا الوقت .

وهكذا أخذت أقرأ ما كتب على عمدة الاعلانات وأخذت
أذرع هذا الشارع الواسع بخطى عجيلى سريعة ، فما وجدت في
تلك الساعة الباكرة دارا مفتوحة ، فدور السينما في المانيا تفتح
وتغلق في أوقات معينة ، وليست كما عرفناها في إنجلترا متعة
لا تقيد بوقت ولا بساعة محدودة .

وهكذا ساقنى التجوال إلى ميدان المحطة حيث كنت
صباحا ، فحمدت الله الذى جعل لتطوافى هذا حدا وغاية ولو إلى
حين . ولم أكن أرغب فقط أن أبدل منظر هذه الشوارع
المتكرر بالحياة المتجددة التي تفيض بها هذه المحطة العظيمة ؛
بل إننى كنت أسعى بخلاف ذلك إلى جلسة هادئة لألتهم جانبنا

مما كنت أحمل في حقيبتى الصغيرة من العنب ، الذى استهوانى
منظره وقد كوم أكواما تحت أشجار كارل بلاتس وقد غسلته
مياه المطر وثلجه صقيع ذلك اليوم ، حتى أننى لم أكن لأعرف
له طعاما معيناً ، لشدة فعله باللسان والأسنان . وكنت أحمل عدا
ذلك ربطة من التين المجفف !

لذلك كنت فى طريقى الى المحطة تدفعنى هذه الدوافع جمعاء .
فنسيت فى تلك الساعة الذهاب الى دار السينما .

فى ظلام السينما

ليس هنالك فى إنجلترا مكان كدور السينما يجمع الغريب
بالغريب ويعطف على الشريد ، فى ظلامها الذى لا يبدده فجر صادق
ولا كاذب يجد المجد التعب ركنا يسبل فيه عينيه وينام فيه ملء
جفونه ، دون رقيب غليظ يحاسبه على دورة الزمن .

و كنت إذا هبطت لفر بول أو برمنجهام فى اليوم الممطر ،
أهرع إلى احدى هذه الدور التى تفتح أبوابها منذ الظهيرة لأحتل
مقعدا فى مقابل بنسات لا تزيد عن الستة عددا ، عدا ما استحلته
لنفسى من مقاعد أنشر عليها سعطفى الببلل وأوراقى وحقيبتى

وقبعتي ، وأشهد القصة المعروضة حتى أمل وأنام ، وقد أبدأ
بختامها السعيدة أو المحزنة ، لأعود إليها بعد ساعة من جديد دون
أن أجد في ذلك غصاصة أو ضجرا .

وأى مكان يتسع لأحاديث العشاق أكثر من هذه الدور
النهارية للسينما ؟ وأى مكان يتسع لثرثرة عجوزين لا تصمتان ،
تتعبان على القصة بالقصة والحكاية بالحكاية كأنهما شهر
زاد ، أكثر من هذه المقاعد المهجورة المظلمة في وقت الظهيرة ؟

وكانت صديقتي العجوز مسز هيوز تعرج في طريقها من
السوق بعد الغذاء ، وقد حملت أكياس الفاكهة واللحوم والخضر
إلى إحدى دور السينما في شارع كامدن تاون قتلا للوقت وهرباً
من الوحدة والسأم ، حتى ساعة الشاي وعودة زوجها وأولادها
وبنائها من أعمالهم ومن مدارسهم . .

والغرام الإنجليزي يتأخص في خطوتين ، لقاء في مشرب
من مشارب الشاي ثم دعوة إلى أقرب دار من دور السينما
الرخيصة . وقد تسبق الخطوة الأولى الثانية فيكون اللقاء على
باب من أبواب هذه الدور . وتختتم القصة بدعوة إلى فنجان

من الشاي وقطعة من الجبن أو الكعك في مشرب من مشارب
الشاي الزهيدة ..

ولكن ليست للسينا في أوروبا هذه الروعة - روعة البساطة
التي لها في إنجلترا ، فقد قيدت بالساعات والدقائق وضيق
الحناق على روادها ، فارتفعت أثمانها حتى أصبح الفتى يفكر
في الذهاب إليها ويحاسب نفسه عن مقدار ما ينفق وما يدفع !
وإذا فكر العاشق في شئون المال كره كل ما يذكره بعجزه ،
وهكذا هذه الدور الغالية في ألمانيا وفرنسا ..

المحطة ثانيا ..

محطة ميونخ كعهدى بها كل يوم ، من أكثر محطات
أوروبا ازدحاما وعظمة ، لاشك أنها أروع من سان لازار
وجارد ليون في باريس وفكتوريا ووترلو في لندن ، بل انها
أعظم من انها لمر محطة برلين الكبيرة .

العالم كله يتمثل في هذه المحطة ، ومتاجر البيع والعرض
بأنواعها تراها مصفوفة على جوانب طرقاتها ، ثم المطاعم ومشارب القهوة
والشاي واللبن والجمعة ، ثم المكاتب ومحازن المجلات والصحف

والبطاقات والهدايا ، ثم مخازن التبغ والسجاير وما إليها ، ثم قاعات الجلوس والحمامات ..

وفي هذا العالم الصاحب ولجت أحد أبواب هذه المحطة وأنا أنتفض من البرد وقد ثلجت أصابعي من المشى والتجوال بحثاً عن دار للسينما . ثم انني اتحيت مكاناً قصياً في طرف من أطراف المحطة وجلست على نافذة مقفولة وفتحت حقيقتي وأخذت أرسل أصابعي إلى قرطاس العنب أقتنص حباته واحدة واحدة ، وأنا أرقب طوائف الغادين والرائحات .

حتى إذا انتهيت واغتسلت رجعت إلى بهو المحطة الأوسط ، أقرأ اعلانات الصيف إلى جبال بافاريا وقد بدت صورها المضيئة فاتنة تستهوى النظر ، وفيما أنت تحديق النظر ينفتح الباب فجأة ويدخل رجل وزوجه يرتعشان من البرد وقد بلاهما المطر حتى تسرب ماؤه من المعاطف إلى الأكتاف ومن الأحذية إلى الجوارب ، ترى هذا الرجل المبلل المرتعش وتنظر إلى صور الجبال المنيرة ، فتحس بانها تكذب عليك في هذا الوقت من العام ، تحس بانها الآن موحشة كالظلام ، وتدوى فيه العواصف كصرخات القليل !

ليس أكاذب من اعلانات السياحة!

هذا المصور كيف يرضيه ضميره أن يحيل هذه الأكواخ
وهذه الحقول بأعشابها وأشواكها وهذه التلال بأحجارها وحصاها ،
كيف له أن يحيلها إلى جنان وارقة وإلى عالم سحري عجيب ؟
إن هذا العالم الذي يصوره تجار السياحة في إعلاناتهم عالم
ليس له شبيه ولا مثيل على الأرض ، إهمم يخلقون من الاشياء
قصصا وحكايات .

فصخور كورنوول الجرداء القاسية يدعونها بفردوس الوحدة
واللانهاية ؛ ورمال المغرب السافية يدعونها بعالم الخلود السحري ؛
وأكواخ القرية الفقيرة المعدمة بأنها سر من أسرار الجمال التي
لا تفتح إلا لمن حياهم الله بالخيال الواسع ، ثم قوارب الصيد الجاثمة
إلى المرفأ تبدو كأنها أسراب من البجع البديع ؟ !

وهذا السائح المسكين الذي يقرب هذه الصحائف الفاتنة
يعيش بينها ساعة في عالم من الأحلام ؛
وأنا لا ألوم المصور المسكين فلعلة عاجز عن أن يصور سافيات

الصحراء وجمود الصخر العابس ، ورأحة السمك القاذعة التي
تنبعث من قوارب الصيادين التي بدت كأنها أسراب البجع
الأبيض السامى !

والسائح الجوال كالمقامر الذي لا تزيد خسارته إلا تعنتاً
وصلابة في البحث عن المكسب المضعف ! فما دامت هذه
اللوحات الجذابة في وجهه أينما حلّ ، فهو لا يهدأ له قرار ولا تموت
فيه هذه الجذوة المتقدة ، هذه الرغبة في النزوح إلى ذلك العالم
السحري !

فاذا وقفت على البحيرة عند لوزان حيث يجتمع جمال
الطبيعة من جبل ومن ماء ومن زهر ، ترى بودابست في صورتها
الفاتنة فتحس بأن لوزان لاشيء ؛ وهناك في جزيرة سان
مرجريت ما بين بودا وبين بست ، الجاثمة في وسط الدانيوب ،
تهزك صورة البندقية وتشعر بأن مياه الادرياتيك أفعال سحراً من
مياه الدانيوب ، وأن قناطر بودابست لاشيء بالنسبة إلى عظمة
البندقية الخالدة . .

وهناك في البندقية تحت جسر الدوق تحس بأن هذا السحر
قد رفع عن عينك ، فاذا بماها أسنة جارية كمياه الأرض جميعها

وأن قناطرها من الحجر الجامد الذي براه البحر ؛ ترى كأن
عروس الدانيوب قد أصبحت امرأة ككل امرأة تقابلها في
الطريق — وهكذا تهيج في نفسك رغبة الزواج إلى الترويج وإلى
جولات الفيورد العظيمة ، أو رغبة الرحيل إلى الشرق إلى
ضفاف النيل المقدس أو إلى الهند ذات الاسرار الأبدية ، نعم
ان الأرض لتضيق بك ، بل ان هذه الصور الفاتنة لتجعل هذا
السحر يستحيل إلى مرض كأعراض الخدرات المستعصية . .

ولا يكتشف السائح المسكين إلا بعد حين ، أن هذه الرغبة
في البحث عن نواحي العالم السحرية ، ماهى إلا حلم ككل
أحلام الحياة ؛ ولعله عندما يصل إلى هذه الدرجة ، عندما ينظر
إلى العالم كأنه جالس على قمته ، تستحيل هذه الرغبة الجامحة إلى
فلسفة أو نوع من أنواع الصوفية !

شارة الحصاد

لم تكن إعلانات الرحلات بين جبال بافاريا هي كل ما يستهوى
النظر أو الذكريات في محطة ميونخ في ذلك اليوم — اليوم الأول
من شهر اكتوبر الفائت ، بل كانت ميونخ نفسها تحتفل بعيد
من أعيادها ، وكانت محطة ميونخ كذلك تستقبل موسما جديدا .

أما عيد ميونخ يومئذ فكانت عيد الحصاد . .

وأما محطة ميونخ فكانت تستقبل موسمها الجديد ، حيث
تبدل مواعيد قطرها في مثل هذا اليوم من كل عام ، فجلس بائعو
الجداول الجديدة في أركان المحطة ينادون على بضاعتهم ، ويذكرون
الناس بخطر خلف المواعيد وفوات القطر . .

أما عيد الحصاد فتستقبل فيه هذه البلاد الألمانية الزراعية
موسمها الجديد ، فيحملون فيه سنابل القمح الصفراء الذهبية على
صدورهم فرحا واستبشارا فقد وصلت القافلة الى نهاية المرحلة فلم
يبق من شيء إلا الجنى والحصاد . . ! وما أبدع أن يحمل الانسان
شارة تدل على أن أملا من آماله قد تحقق ، أملاً ما قد تحقق
ولو كان هذا الأمل غير ما يسعى إليه هو أو يفكر في اقتناصه ! !

وليس عيد الحصاد مما يتميز عن غيره من الأعياد عند
الألمانيين بمثل هذه الشارة ، فالشارات بدعة ألمانية عريقة . .
قص علينا صديقنا الشاب الهر جو بنجر في معرض حديث عن
أنواع الشارات ودرجاتها ؛ إن رجال الشرطة وجدوا ما بين الحدود
الألمانية والنمسية رجلا مقتولا ، فلم يعرفوا الى أى البلدين

ينتمى ، إذ ما كان يحمل في جيوبه إسما ولا علامة . وبينما هم
في حيرتهم تقدم فلاح إلى سترة القنيل وفحص ثنيتها بدقة وقرر
بأن هذا القنيل ألماني الجنسية .

وهنا سألنا المهر جو بنجر كيف توصل هذا الألماني البسيط
إلى حل هذه للمشكلة التي عجز عنها رجال الشرطة ؟ إذ لم يكن
جوبنجر يروى لنا رواية بل كان يختبر ذكاءنا على ما اعتقد .
فلم يجبه على سؤاله أحد اللهم إلا تفكها بقصد المداعبة .

أما كيف عرفت جنسية الرجل فذلك لأن ثنية سترته قد
وجدت كثيرة الخروق من أثر ما كان يعلق في هذه الثنية
من الشارات الكثيرة العديدة ، التي لا يحملها على صدره بمثل
هذه الكثرة إلا الألماني . . . وكانت الدعاية مستماعة والملاحظة
ظريفة ، ولكنها على كل حال صريحة صحيحة . .

فالألماني لا بد وأن يكون عضوا في حزب وزميلا في رابطة
ومساهما في هيئة من الهيئات ، وكل من هذى بطبيعتها لها
شارتها الخاصة ، فيحملها جميعا بعضها بجانب البعض
والإيطالي قد اقتنى اليوم أثر هذه البدعة ، إذ لا تجد في إيطاليا

رجلا لا يحمل شارة تدل على أن حاملها إيطالى أو فاشستى .
وإذا كنا نفهم معنى ذلك والايطالى فى غير موطنه ، فما معنى أن
يلبس الشعب بجماعه من الشارات مايدل على أنه ينتمى إلى
هذه الجنسية ؟

وفى أيام الألعاب الأولمبية الأخيرة انتشرت هذه الشارات
الدولية فى ألمانيا ، وراحوا يبيعونها فى الطرقات العامة وفى
مخازن الصحف ودكاكين الهدايا . وإذا لاحظت الشارات
الناقصة من المجموعة المعروضة فانك تكشف مدى إقبال
بعض الشعوب الزائرة على الظهور بمظهرها القومى . وبعض هذه
الشارات التى تمثل أعلام الدول معروفة فى كل مكان ، فليس
من يجهل الهلال والنجوم رمز مصر ولكن من النادر أن تميز
الشارة الحجرية أو البرتغالية أو البرازيلية وغيرها من عشرات
الدول التى ليس لها الشخصية والانفراد الذى لمصر . وترى
الألمانى المستطلع يقترب إليك ليميز ألوان الشارة التى تحمها فىخلط
ما بين العلم المصرى والتركى ، ثم يسر باكتشافه إلى زوجته التى
تحمق إليك فتصل إلى أذنيك هذه الملاحظة الخاطئة ، التى ليس
لك أن تتداخل فى إصلاحها .

والانجليزى أقل الناس ميلاً إلى حمل ما يدل عليه من اشارات
وأعلام ، وقلما تجد على ثنية سترته رمزاً من هذه الرموز ، اللهم إلا
وردة كبيرة أو باقة كاملة من الأزهار البرية والحشائش ، ليس
فيها ذوق ولا جمال. وليس معنى ذلك أن الانجليزى لا يتيهه
بجنسيته كما تتيه شعوب أقل منه موضعاً للتفاخر ، بل لعله يشعر
أن هذه الشخصية الانجليزية لا تحتاج لتمييزها إلى مثل هذه
الشارات والعلامات . . !

المساومة

وفى وسط القاعة تقدم إلى رجل ممن يبيعون اشارات
الحصاد يومئذ ، تقدم إلى من الخلف فلم أشعر به إلا بعد أن عرض
على اشاراته المصنوعة من السنابل الناضجة ، وقد تدلت منها
أشرطة حريرية ملونة .

تقدم إلى فجأة على هذا النحو ، قبل أن أقرر رأياً بشأن
هذه الشارات ، فإذا كان سلباً تحاميت الاقتراب من هؤلاء
العارضين ، وإذا مررت بهم أسير عابساً منصرفاً إلى نفسى
كأننى غارق فى بحر واسع من التفكير ، أما إذا كان رضاء
وقبولاً نهجت غير هذا النهج .

فابتسمت إلى الرجل ، كأننى أشكر له هذه العناية بشخصى
الضعيف ، ومددت يدي إلى جيوبى أتحير منها قطعة تناسب
مع هذا الموقف إذ ليس للشارة ثمن معين مضروب ، وإلا لهان
الأمر — ولكنها تركت كأجور الحلاقين إلى جود الزبائن ،
ولما كان الجود من الموجود كما يقولون فلم أكتشف فى جيوبى
وقتئذ إلا قطعاً مبعثرة من الفنشات ، جمعها ووضعها فى صندوق
الرجل معتذراً ورافضاً فخر حمل شارة من هذه الشارات ، إذ أن
قيمتها أكثر مما نفحت . وقد خفت أن أخرج الورقة الباقية
ذات الماركات العشر لأقطع منها ثمناً لهذه الشارة فيسرع الرجل
إلى دسها فى الصندوق المغلق بلها أوتبها ، وينتهى بأنه ينحنى إلى
تعظيماً ويلبسنى الشارة فى وسط الجمع ، الذى يتكأ كأحولنا
بطبيعة الحال حتى يستحيل الاحتجاج ويصعب التراجع بعد كل
هذا ، وتضع الزخيرة الباقية فى لمحة بصر . . !

ولم تنته قصة شارة الحصاد عند هذا ، إذ أننى بعد جولة
بين أفنية المحطة فككت فى خلالها هذه الورقة ذات الماركات
العشرة ، تقدمت إلى فتاة من بائعات شارة الحصاد — أو لعل

تقدمت إليها ومهدت لها الطريق إلى مهاجمتي على هذا النسق —
فأخرجت لها قطعة فضية وجعلتها ترن رنيناً في صندوق التبرعات .
وكانت الفتاة رشيقة بارعة عمدت إلى تثبيت واحدة
من هذه الشارات الرقيقة على سترتي ، بين همس الواقفين
وابتساماتهم .

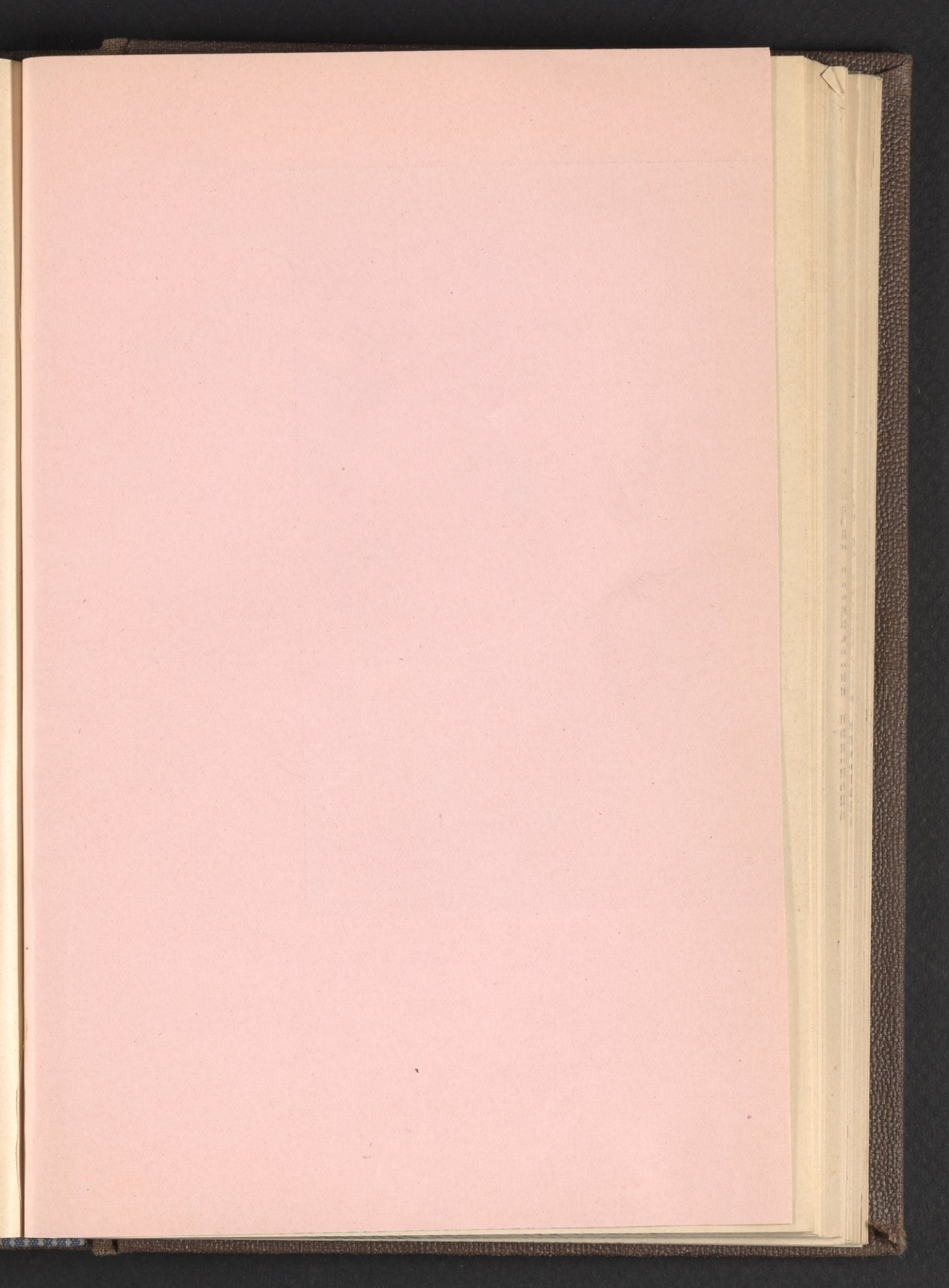
وما أشد موقف الأجنبي حيال هذا ! فإذا لبس هذه
الشارة الوطنية وراح بها مزهواً نخوراً ، لا يعدم من يدحجه بنظرة
قاسية ويرميه بالملق والرياء والمداهنة ، إذ ما باله يسبق
المواطنين إلى أداء واجب من واجباتهم وبعضهم لا يحمل مثل
هذا الشعار .

وإذا رفض قبول هذا الشعار ولو برفق وأدب ولين . لا يعدم
من يدحجه بالنظرة القاسية العنيفة ، ومن يرميه بلؤم الطبع
وخسة النفس ، وجهل بأبسط أصول المجاملات .

بيد أنني اتخذت بين هذا وذاك طريقاً ، فانزويت في ركن
من أركان المحطة حيث خلعت هذه الشارة ووضعتها خلف ثنية
السترة يبدو جانب منها ويختفي أكثرها . .



عيد الحصاد



كانت الساعة الثالثة عندما خلفت محطة ميونخ ، وبدأت أجوب من جديد شوارع المدينة تحت موجة جديدة من المطر ، فمررت في طريقي بفندق ك .. وقد وقف أمامه رتل من السيارات وسيارة كبيرة تحمل عشرات الحقائب ، فأخذني العطف وأنا أشاهد وجوه هؤلاء السائحين وهم يندفعون من سياراتهم إلى باب الفندق تحت وابل المطر وقد فجعهم هذا اليوم العبوس في رحلتهم

و كثير من المتشائمين لا يقضون رحلاتهم إلا تحت المطر وفي الضباب الخانق والعواصف العنيفة ؛ تمر عشرات الأيام والشمس تشرق وتغرب كأنها على موعد مضروب حتى إذا جاء الأسبوع المنشود الذي يرقبونه عاما كاملا ، لم يخنهم تشاؤمهم فيقضون رحلة البحر يعالجون رعوسهم و بطونهم من دواره ، ونزهة الريف وراء زجاج نوافذ فنادقهم يرقبون البرق الخاطف والرعد القاصف . ويرجعون إلى بيوتهم بحقائبهم مصفوفة مرتبة لم تمس أيديهم قبعات الصيف ولا ألبسة البحر ولا آلات التصوير !

انهم يشعرون بهذا النحس في قرارة صدورهم ، فيرقبونه بثقة وطمع ، وتحقق لهم الأقدار الالهية هذه الرغبات ! !

وقد يكابر الشباب ، وقد يحاول مجاهدة هذا النحس ،
ولكن الطبيعة لا تريد الإعنادا ، فتلطيخ السروال الصيفي الأبيض
بأوحال الشارع ، وتعرق حذاء الفتاة الأنيقة بماء المطر ، وترسل
سهام البرد إلى ظهرها فتكرهها على أن تغطي مواضع حسنها
وفتنها ..

قرار جديد

ليس لي الآن إلا أن أبحث مرة أخرى عن دار للسكنى
فهى الملبأ الواحد فى هذه الساعة المنحوسة ، فتخيرت داراً معينة
شاءت ألا تكون إلا فى طرف المدينة الآخر ، فأسرعت الخطى
حتى كأننى أركض ، فأحسست بدفء وراحة وشعرت بأننى فى
فى مهمة من المهمات أو واجب جدير بالمحافظة عليه ، فسرت
لا ألوى على شىء ولا أتلفت . حتى إذا ما وصلت إلى حيث هذه
الدار ، وجدتها منفردة يحيط بها فناء واسع وتصعد إليها بدرجات
عريضة واسعة كأنها معبد من المعابد أو دار للابرا .

ولم يكن فى هذا الفناء الواسع من غادٍ أو رائح ، فالمطر قد
أصبح أشد عنفا من قبل ؛ ومن بعيد لمحت الجلاسة خلف نافذة

الذاكر المضيئة ترقبني بعناية خاصة ، إذ لم يكن أحد سواي
في هذا الفناء الواسع ، ولعل احداً لم يقترب من الدار منذهنية ،
فاخذت ارتقى الدرجات كأني متهم يقترب من منصة العدل .

ثم إنني لم أحتمل هذه العيون الرقيبة الفاحصة ، فاخفيت
حول عمود من أعمدة الدار كأني استعرض الصور والاعلانات
التي لصقت عليها ، ولكنني كنت أنظر خلسة إلى قائمة الأثمان
المعلقة على رأس النافذة المضيئة . .

فاكتشفت أن مابقي من المقاعد الخالية لا يقل أجره عن
ماركين كاملين ، ثم عدت مابقي من النقود الألمانية ،
واستدكرت ما أنا راغب في شرائه من حاجات السفر
فرايت أن من السفه أن أبذر هذا التبذير ، بل أنني عجبت
لنفسى كيف ساورتني رغبة الذهاب إلى السينما ؟ وهل كان
ينقصني أن أسافر إلى ميونخ لأشهد فلما من الأفلام ؟ أليست دور
السينما في كل مكان ، وهل كنت يوماً من روادها الخالصين ؟

إنني لم أقرر فقط فساد هذه الرغبة ، بل أخذت أعنف
نفسى لهذا الانتواء في التفكير ، ولعل ذلك لسكى أزيد نفسى

يقينا بأن دفع قش واحد في سبيل السينما في هذا المأذق المالى
الذى كنت به ضرب من السخف ! وهكذا كان .

ثم إننى نظرت إلى ساعتى فوجدت أن نصف ساعة كاملة
أو يزيد قد انقضت فى هذا البحث وهذه المناظرة الفكرية ،
فشعرت بأننى اختلست هذا الوقت اختلاسا ، فاحسست براحة
ورجعت أدراجى إلى المدينة

ولم أجمع الرأى على هذا فقط ، بل أننى قررت أيضا الامتناع
عن شراء هدية ما من تلك الهدايا التى سبق أن رأيت أن أحملها
معى من ميونخ . وهكذا وجدت فضلا من النقود الألمانية
ما كنت أحصل عليها ، لولا هذا القرار المالى الحازم . . .

عدة السفر

ولعله ابتهاجا بهذا الحل الموفق عرجت فى طريقى على أحد
محلات الحلوى المنتشرة فى طريقى ، واشتريت قالباً ضخماً من
الشوكلادة لأجعله زاداً لى فى رحلتى الطويلة هذا المساء ، من ميونخ
إلى مياه الادرياتيك .

وهذا النوع من الشوكلادة من أمتع الأطعمة عندى ، وله

أطيب الذكريات مذ كنت طالبا في لندن منذ عشر سنين .
فقد كانت حقيقتي لا تخلو من قلب ضخم من هذه الحلوى ،
أستعين بها على حضور المحاضرات الطويلة المتعددة ، والجلوس
في مكتبة الكلية الساعات الطويلة أراجع وأستذكر وأكتب .

وقد كانت محاضرات صديقنا القديم الدكتور كيلنج في
المنطق لا تبدأ إلا الساعة الخامسة ، وحدث في شهر رمضان أن
كان موضع الافطار في منتصف هذه المحاضرة التي تستمر
ساعتين ، فكنت أجلس في مؤخرة التحوت وأفتح حقيقتي وألحني
مختبئا في عظامها المفتوح والتهم جانبا من هذا القاب بهم يستحيل
كل ليلة إلى صداع مفرع . ولا أعود اليوم إلى التهام هذا النوع
من الحلوى دون أن أذكر محاضرات المنطق ، وكلية بركبك
والدكتور كيلنج ، نعم أن هذا جميعا قد ارتبط بهذه الحلوى
ويا لها من رابطة عجيبة ...

ثم عرجت على مخزن وولورث لأجول فيه جولة ختامية قبل
أن ابرح المدينة ولأشتري ما قد نسيته من حاجات السفر . وإذا
دخلت أحد مخازن هذا المتجر العالمي ، ذكرت ولا شك شيئا نسيته

وما أكثر ما ينسى المسافر وما أكثر ما يظن المسافر أنه في مسيس
الحاجة إليه ، إذا ما رآه معروضا في مكان كوكولورث ؟ !

وبين آلاف المعروضات الرخيصة المنشورة على المناضد
المضيئة ، لم أشعر بحاجة إلى شراء بطاقة من مناديل الورق الملون ثم
معجون للحلاقة ؛ بعد أن ترددت أمام كل شيء مررت به حتى
أمام قلانس الرأس التي كنت في أشد الحاجة إليها ، بعد أن
فقدت قلنسوتي في رحلتي الأخيرة من الإسكندرية إلى مرسلينا .

أما هذه المناديل الورقية التي اشتريتها فلم تكن لي بها حاجة
في رحلتي ، وليست هي بالشيء النادر العجيب الذي لا أجده
شبهها في مصر ؛ أما معجون الحلاقة فكان آخر ما أفكر في
شراؤه لأن مامعي كان فيه كفاية شهرين كاملين . وهكذا كان
حرصني الشديد في الاختيار والمفاضلة جعلني أبحث عما لا رغبة
لي فيه واشترى ما أنا أزهد الناس في شرائه !

شاي الساعة الخامسة

إقتربت الساعة الخامسة !

وآن الوقت لجلسة هنية بين أقداح الشاي ؛ جلسة دفيئة

مريحة تصدح خلالها الموسيقى الكلاسيكية القوية !

لست أقبل على شىء بلهفة كما أقبل على احتساء قدحين أو ثلاثة من أقداح الشاي في مثل هذه الساعة ، بعد يوم مجهد كهذا اليوم ؛ ولست ممن يستمتعون بالموسيقى الكلاسيكية إلا في مثل هذه الجلسة ، وقد بدأ الشاي يفعل بالأعصاب المهذودة فيخلقها من جديد فتستريح النفس للانصات إلى الموسيقى التي ترفعها من جمودها وخمودها إلى الحياة النابضة .

واعل أمتع قدح شربته من أقداح الشاي في ليلة مثل هذه الليلة ، وكان المساء بارداً شديد الريح حتى لم يبق زائر على شاطئ البحر عند كلفتن فل أوسوث أند حيث كنت أقضي الصيف في جنوب إنجلترا ، وقد قضيت ذلك اليوم مع صديق عزيز لنا على رمال الشاطئ مجاهداً مع أمواجه على غير معرفة بأصول السباحة . حتى إذا أقبل المساء شعرت بأننى مجهد جد الاجهاد وجائع قد أنهكه السغب

وهناك في مطعم للسماك كنت أمر عليه كل ساعة في كل يوم جلست خلف النافذة المتقلبة ، التي عجزت الرياح الغاضبة عن

العبث بصلابتها ، خلفتها في الشارع تصفر وترعد ، جلست لأتتهم
طبقاً من فاخر السمك كان أمتع ما أكلته ، ولأشرب قدحاً
من الشاي كان أنفر ما شربته ؛ ولأشعل غليونى فكان أمتع
جلسة عرفتها ، لقد كنت أشعر بان الكمال الانسانى قد تمثل
في شخصى ، وأن سعادة الأرض قد هبطت على كتفى !!

هذا هو القدح من الشاي ، الذى أحسست بان رغبتى فيه
كانت هذا اليوم البارد المطير رغبة حقيقة !

فير ستنهوف

وفى مشرب فير ستنهوف الفاخر . جلست لأنعم بكل هذا
بالدفء والراحة والموسيقى وبالشاي الساخن ؛ ولكنى بعد كل
هذا لست أدرى كيف أنى قد طلبت فنجانا من القهوة ! لقد
كان ذلك نوعا من الشرك والكفر بنعمة العقل . .

لم يكن مشرب فير ستنهوف بالمقهى الذى ساقتنى اليه الصدفة
المحضه ؛ وليس فير ستنهوف بالمقهى الذى إذا طرقته مرة نسيت
أن تعرج عليه كلما ساقتك قدماك إلى ميونخ .

ومع ذلك فانى استعرضت مقاهى هذا الحى جميعها ،
أفاضل بين مقاعدها وزينتها وموسيقاها وضيوفها وأثامها .

هذه القاعة الواسعة العظيمة وجدتها اليوم كما عرفتها في العام
الماضى في مثل هذا التاريخ ومثل هذه الساعة . فالكراسى
الجلدية الحمراء التى تفيض ارستقراطية ، وإن لم تعمل على راحة
الجالس ، تبدو كأنها قطع من الخرف أو تحف فنية وضعت
لتزيين المكان .

ومن سقف القاعة تدلى نجف متوهج كأنه الشهب العظيم
فى طريقه من السماء إلى الأرض . وفى وسط القاعة أعدت
منصة الفرقة الموسيقية بزخارفها الكلاسيكية التى تنسجم مع
ما ينبعث من هذه المنصة من ألحان وأشجان .

وما أن جلست فى ركن القاعة على بضع خطوات من منصة
الموسيقى — وفى المكان الذى جلست فيه من قبل — حتى
شعرت بأن المكان كما عرفته فى الماضى لم يتغير قليلا ولا كثيرا ،
وكأننى كنت أتردد عليه فى خلال هذا العام يوماً بعد يوم ، حتى
أصبحت العين لا ترى فيه جديداً يدعو إلى الاستطلاع أو للعجب .
أن هذه المحافظة نوع من الكبرياء والثقة بالنفس .

وكانت المشاجب زاخرة بما عليها من مئات المعاطف والقبعات

والمظلات وما يتبع ذلك من حقائب صغيرة أو لفافات ؛ وجلست
الفتاة التي تحرس مستودع المعاطف تقرأ صحف المساء وتستمع إلى
الموسيقى دون أن تنزعج حين يمر عليها الداخل من الباب الزجاجي
المجاور لمبال المعطف والقبعة ، وهو مع ذلك لا يتلفت إلى مخرجها
الواسع الذي صفت فيه عشرات المشاجب التي كان أكثرها في
تلك الساعة فارغاً !

وكان المشجب الذي بجواري محملاً بعشرات من هذه
المعاطف والقبعات المبللة ، وكانت جاستي بحيث لا تجعل الزائر
يستعمل هذا المشجب إلا إذا دار حوالى أو استأذن مني ، وفي
كثير من الأحيان كنت أقوم بهذه المهمة من إيداع أو استخراج
قبعة معينة أو معطف خاص من بين هذه الأكوام من المعاطف .

حكايات الشاي

وجلس إلى جانبي — والحقيقة أنني الذي جلس — شاب
طويل مهضوم البدن له شعر أحمر في صحبة فتاة تتناسب معه طولاً
وعرضاً ؛ مع ما كان يبيديه من البلاهة ، التي أخذتها عليه من
ملاحظات سخيفة وصوت ناعم وعين مترججة وانصراف عن
كل شيء إلا الأمن الحديث . ولعلني أردت أن أحكم عليه هذا الحكم

شيء في نفسي لا أذكره ، فجمعت هذه الأدلة ضده تعنتاً وتلفيقاً .
ثم جاءت سيدة وجلست إلى جانبنا ، متوسطة العمر والملاحة
تلبس نظارة وتحمل كتباً وأوراقاً ؛ لم ترد إلا أن تنهك فيها حتى
لا تبدو أنها فضولية ، ولكن قراءتها لم تطل بعد أن رأت أن
الشاب الجالس منصرف عنها إلى صديقتها التي كانت تبدو كل
علامات الإعجاب بصاحبها ، كانت تؤمن على كلامه بالقول ،
وكان تهز رأسها إيجاباً وسلباً تمكيناً لموافقتها ، وتبتسم غبطة
بأرائه ووجهة نظره .

كان وراء هذا الإعجاب الشديد حكاية ولاشك ، ولأمر
ما كانت الفتاة حريصة على أن تحصر هذه الشاب في دائرتها
وحدها ، ولعل ذلك الذي دعاني إلى أن أرميه بالعتة . ثم ان السيدة
لما رأت انصرافي كذلك عنها بملاحظة الجالسين إلى جانبها ومراقبة
الخدومات اللاتي كن يصلحن أطباق الشاي والحلوى بجواري :
بدأت تتقرب إلى بالوسائل التي تعرفها كل امرأة . ولكنني لم أجد
في نفسي رغبة إلى الرياء ولو مجاملة ، فبقيت صامتة حائر العين
جامداً . فلما رأت هذا الانصراف مني لم تجد بداً من أن تصلح
نظارتها وتبدأ القراءة من جديد .

و جاء في هذه الأثناء زبون من أصحاب المعاطف الخزونة
خلفي ، وراح يبحث عن معطفه بين عشرات من أشباهه وقد
انثنت قليلا لأحلى مكانا لوقوفه . ولعله كان يحملق إلى دون
أن أحس ، وكان يتخير سؤالا يلقىة على مع استحالة المناسبة .

عند ذلك سمعته يسألني عما إذا كنت أعرف الألمانية ؟
وكان هذا التطفل سببا لأن أجيبه بصوت مرتفع واستهتار حتى
أجعله يحس بسخف سؤاله .

وهذا السؤال لا يكاد يتغير يسمعه الغريب في روما كما
يسمعه في بودابست ، ويسمعه على الراين كما يسمعه على الدانوب
حتى إذا انتهى السائل من حكاية اللغة ، راح يسألك عن مدى
إعجابك بالمدينة التي تزورها .

حتى إذا أجبته بأنها أمتع مدينة عرفتها ، وأن أهلها أعرف
الناس بأصول الضيافة والمجاملة بما هو محفوظ معروف
ابتسم ابتسامة تقدير وإعجاب ، وراح يزيدك إيضاحا وتفسيرا
عن مواطن الجمال والفن في هذه المدينة ، وقد يلهبه هذا الحماس

إلى دعوتك أو استضافتك ولو على جولة في شوارع المدينة ،
حتى لا يدع ركنا أو بناء قديما أو حديثاً إلا يقف أمامه

أبام كولون

فقد حدث أن عرفت أحد هؤلاء المتحمسين في كولونيا ، إذ
هبطتها مرة في الصباح الباكر ، ودخلت أول مقهى صادفته مفتوحا
في تلك الساعة ، وهناك وجدت من الخادمة استعدادا للكلام
والسمر إذ لم يكن في المكان غيرنا ؛ ثم دُفِع الباب ورن جرسه
ودخل رجل متمدد البطن أصلع الرأس مفتول الشوارب على
الطريقة الغليومية يسير وهو يدك الأرض تحت قدميه .

فسلم على الفتاة وأخى رأسه إلى وجلس إلى جانبنا ، وما
أسرع أن جرنى إلى الحديث بالمقدمات عن الجو والمطر والبرد
والحر ؛ فسأنى أولا عما إذا كنت مكسيكيا أو برازيليا أو أفريقيا
أو هنديا أو من جزائر المحيط الجنوبي .

حتى إذ اعرف أننى من مصر راح يمدح ويسترسل في المديح ،
وراح يعدد مواطن العظمة والخلود في الحضارة المصرية ، ثم عقب
على ذلك بما يجول في نفسه منذ أمد طويل إلى رؤية أرض الفراعنة

والتخطر على شاطئ النيل المقدس . . . ولو أنى ذكرت أن
موطنى البرازيل لما توائى الرجل عن توجيه هذه الرغبة الدفينة
إلى عجائب الأمزون ، من غابات المطاط ومزارع البن والموسيقى
الأسبانية العنيفة !

بيد أن أمثال هذا الرجل يحمل ولا شك قلبا نقيًا مخلصًا
فى كل ما يقوله ، غير أنه يكيف هذا الجوب بحيث لا تتعارض رغبة
برغبة ولا غاية بغاية !

وهذا كله ولا ريب مقدمة إلى حديث أعظم خطرا وأمتع
عند صاحبه ، وهو التحدث عن بلده وعن وطنه وما إلى ذلك
فيجربى الحديث على هذا النسق :

— أنك تجيد الألمانية (مثلا) !

— (فتقول بشيء من الزهد) أعرف القليل منها وليست
هذه إجابة ..

— أوكد لك أنك الأجنبي الوحيد الذى يتسيطر على
أصول هذه اللغة تسيطرًا كاملاً . أين تعلمها ؟

— (بتواضع) فى مصر

ثم ينتقل الحديث إلى الخطوة الثانية .

— كيف ترى كولونيا (مثلا) ؟

— مدينة عظيمة حقا

— صحيح ؟

— بالطبع

— ومتى هبطت المدينة ؟

— اليوم فقط . .

— هل ستقضى وقتاً طويلاً

— يومين ليس إلا

— يومين ؟ لا ، هذا لا يجدي ولا ينفع . إذ أن هذه

المدينة من أقدم بلاد العالم ، أنها تحوى من أما كن الفرجة

مالا تحويه مدينة أخرى ، لقد كان الملك فلان يعتبرها أجمل

مدينة على الأرض ، وكانت الأميرة فلانة تعبدها .

— هل زرت الكتدرائية ؟

— سأزورها في المساء .

ثم لا تنس أن تزور معرض الصور ، والمتحف القديم ،

وحديقة الحيوان والقلعة الملكية الخ الخ .

وهكذا يسرد عليك الرجل كشفا طويلا بما تجب زيارته ،
من هذه الأمكنة التي لا تخلو منها مدينة من المدن ، ويؤكد لك
من أهميتها حتى لتشعر أن الإهمال في ذلك جريمة لا ينفع فيها ندم
أو استغفار .

وهكذا كان صديقي في كولون ، والد تلك الفتاة والضابط
في الجيش الامبراطوري سابقا ، لقد كان متحمسا بلده حتى لم يدعني
أفلت من عينيه ساعة واحدة ، بل كان يعقب على موعد الصباح
بموعد الظهر والظهر بالمساء ، وكنا نطوف حول المدينة وتقف أمام
كل شيء ، حتى أننا ذهبنا يوما إلى سوق الخضراوات وراح يشرح
لي نظامه وعظمته ، كأن أسواق الخضراوات من عيون الآثار التي
لا تعرفها إلا مدينة ككولونيا . .

موسيقى

وكانت الفرقة العازفة في مقهى ميونخ من الفرق المعروفة
وكان رئيسها من الأسماء المتداولة في الصحف ولوحات الاعلان ؛
وكان المشرب حافلا بمئات الزائرين لم يعد مقعد واحد من
المقاعد الجلدية الحمراء خاليا ، ولم ينصرف أحد من الجالسين

إلى الحديث أو السمر إذا عزفت الموسيقى ؛ حتى إذا انتهى الدور
دوى التصفيق كالرعد وعلت همهمة الأعجاب وانفرجت الأفواه
بالابتسامات العريضة ، الى رئيس الفرقة الذى يتقدم الى طرف
المنصة وينحنى برأسه حتى ركبته ويتلفت يمينا وشمالا يشكر
ويقبل الهواء .

ولست أدري لم لم أستمتع اليوم بهذه الموسيقى ؟ التى أذكر
أنها قد فعلت بي فى الصيف الماضى أبلغ ما تفعله للموسيقى بقلب .
ولكن الاجهاد والتعب ، قد حد من هذه الاستعداد ، ومن
القدرة على تفهم أسرار الفن ومن الاستمتاع بهذه الرياضة
الروحية السامية .

والموسيقى لا تتغير ، ولكن نفوسنا هى التى تصبغ الجوالذى
نعيش فيه ، فتستحيل الموسيقى إلى ضجيج مزعج يهز الأعصاب
ويثير سخائم النفس ، أو تستحيل هذه الأنغام الهادئة إلى أزيز
سخيف ، إذا كانت النفس جامدة والجسم متعبا مجهدا .

وكانت الفتاة الجالسة إلى جانبي تغمض عينيها ، وتتمم بشفيتها
وتهز رأسها هزاً رقيقاً ، ومن حين إلى حين كانت تنظر إلى

صاحبها بلذة عجيبة ، كأنها تحاول أن تثبت له درجتها من دقة
الاحساس ، ومن الأثر الذي تركه الموسيقى في نفسها .

تحاول أن تثبت له رقة مزاجها ومبلغ أنوثتها ، ومقدار فعل
الموسيقى بأعصابها ! أليست امرأة ؟ ثم أليست المرأة هي التي
تجعل من عواطفها بضاعة رابحة تتاجر بها ! كأن النساء أدق
إحساسا وأرق مزاجا من الرجل ؟

وحول المائدة المجاورة جلست سيدة سمينة في وسط من
الأطفال والرجال ، وكانت أحاديثهم عائلية جعلت كل واحد منهم
منصرفا إلى ما يدور بينهم من قصص ومن ملاحظات خاصة ؛
ولكن السيدة ما ونيت منذ أن اكتشفت وجودي عن التلفت
إلى مكاني ، والنظر إلى كل ما سنحت الفرصة واغرق أطفالها في
الضحك ، أو أحست بأنني منصرف إلى القراءة أو إلى التحديق
إلى الناحية الأخرى .

فلم أستسغ هذا الفضول طويلا ، بل أردت أن اتحدى الفضول
بالفضول ، فتعمدت أن أنظر إليها وأن انصرف عن كل شيء إلا
من النظر إلى مكانها ، فكنت أدمن النظر إلى شعرها وإلى

قفازها وإلى حذاءها ، وكنت احملق الى فيها حين ترفع قدح الشاي
اليه ، حتى شعرت بأن هناك شيئاً غريباً نايبا جعلني انصرف اليها
هذا الانصراف كله ؛ لهذا لم تربدا من أن تدير وجهها وأن تغرق
نفسها في أحاديث أطفالها .

وفي ذلك الوقت لم يسعَ أحد من الجالسين إلى مغادرة
المكان ، وقد انتهى كل واحد من التهام حلواه أو احتساء قهوته
ولم تبق إلا متعة الموسيقى ، فوقفت الخادمت صفا الى جانبي
وأيديهن منعقدة الى صدورهن كأنهن يصالين ، وقد ترك بعضهن
« صينية » القهوة بين أذرعهن ، وانصرفن بعيونهن الى الموسيقى
وقد كان هذا المنظر فاتنا جميلا ؛ وكانت أصغر هذه الفتيات تبدو
كأنها عروس ، ولكن إعجابي بها كان ضعيفا فلم أشعر برغبة
الى النظر اليها ، أو الابتسام المعروف في مثل هذه المواقف .

ولعل ذلك كان الدافع إليه السفر ، وشعوري بأن مقامي لن
يطول أكثر من ساعات قليلة ، كأن الاعجاب بالجمال معقود
بالأغراض والمآرب والغايات ؛ فاذا استحالت كفرنا بوجود هذا
الجمال وبأثره في النفوس والقلوب ؟

كانت مشكلة الخطابات أشد ما كان يحز صدرى فى ذلك اليوم ، كان من الضرورى أن أرسل جملة من هذه الخطابات قبل أن أترك ألمانيا ، كان لا بد أن أرسل بطاقات إلى برلين أشكر أصحابا وأذكر آخرين بشيء نسيتته ! وكان لا بد أن أرسل خطابات هامة إلى مصر ، ولا يضيرنى لو وصلت هذا الخطاب بعد عودتى إلى القاهرة !

وكتابة الخطابات يارعاك الله أسمح واجب عرفته ، وأثقل ما يكون هذا الواجب عندما تشتد الحاجة إلى كتابة هذه الخطابات والبطاقات وما إليها ونحن على سفر ، فاشعر بالعجز جملة ... فأفاضل بين أهمية خطاب وخطاب وجواب وآخر ، فاسقط هذا من الحساب ، واستبعد ذلك ، واهمل آخر السبب ثالث ، فلا يبقى إلا خطاب واحد ، أفكر فى صيغته وأتخيل أنى كتبته ونمقته ، وألقيته فى أقرب صندوق للبريد ، حتى لا يبقى من تحقيق هذا الواجب الذى أصبح بسيطا إلى هذا الحد ، إلا أن أخرج ورقة واستعيد ما سبق أن كتبته تصوراً .

وهكذا أخرجت الورق الأبيض والمظاريف التى ألصقت عليها

طوابع البريد تذييلاً للصعوبات الطارئة ، وتأكيذاً بأن رغبتى
فى الكتابة أكيدة لا يشوبها عارض ؛ ثم قربت جيب معطى
حيث ذلك القالب من الشوكلادة ، ورحت أقضم منه فى خفية
عن العيون ، بينما أعددت القلم كأننى أعد سيفاً للنزال والمبارزة .

وبدأت بكتابة العنوان ، لأنه ولا شك أهم بكثير من الجواب
نفسه ، فالخطاب لا يصل بدون عنوان مدون على مظهره ،
ولكن الجوابات الفارغة وما أكثرها تصل فى سلام وأمان ! .
وكان القلم قد أحس بهذا الجهاد النفسى الذى كنت أعالجه ، فجمد
ريقه فى حلقة واحتبست أنفاسه فلم ينفع فيه النثر ولم يجد النقر ،
فحمدت الله على ذلك وجمعت أدواتى فى جيوبى مرة أخرى .

ثم حاولت القراءة ، وكانت جريدة (ميونخ اتساينتج) إلى
جانبى ، فما أن رفعتها إلى وجهى وبدأت حردها الغوطية السوداء
كأنها الهيروغليفية من أثر الأجهاد والتعب ، حتى أحسست بأن
رغبتى فى القراءة ليست جادة ، كما أحسست بأن عيني تخزنى
بعنف وكأنها تؤكد من رغبة الأنصراف عن القراءة .

صمتت الموسيقى ، وبدأ الجالسون ينصرفون ، وتغيرت
وجوه الفتيات إذ بدأت ساعات العمل الليلية ، وبدأ المكان

الواسع مهجورا ، فلم تبق إلا مقاعد قليلة تجلس عليها عجوز. تقرأ صحيفتها أو شيخ يستريح ، ولكن لم يكن بد من الجلوس في هذا المكان مع خلوه ، فهو خير من التجوال في الشوارع المطيرة التي أغلقت أبواب متاجرها ، واطلمت نوافذها في مثل هذه الساعة .

ثم ولجت المكان في تلك الساعة سيدة حملت طائفة من اللقافات والصناديق الورقية ، وجلست إلى جانبي وطلبت عشاء ، ورأت من خلو المكان ما شجعها على فتح هذه اللقافات واستعراض ما اشترت - ولعلها هربت من وحدة البيت ، ولكنها استبدلت وحدة بوحدة ، وبيتا خاليا بمكان مهجور .

وجاءت إليها الخادمة الجديدة بلباسها الأسود والأبيض ، وقد تدلى على صدرها صليب من الماس الصناعي الرخيص وترجع على هذه اللقائف ، التي أبدت الخادمة ولا شك اعجابا بها وتقديرا لذوق السيدة ، وتمكيننا لرابطة الالفة بين الخادم والمخدوم في مكان خاوٍ خالٍ كهذا المكان .

عند ذلك لم أطق صبرا على الجلوس ، فقممت على قدمي فجأة واخترقت صفوف الموائد والمقاعد الخالية إلى الطابق العلوي وقد

خصص لقراءة الصحف واعب الشطرنج ، كما خصصت قاعة
فسيحة منه للرقص ؛ وجدتها مظلمة وحيدة مهجورة كأنها
فناء كنيسة في ساعة المساء ، وكانت بعض الخاديات تدهن
أرض القاعة وتعدّها لليلة السهرة ، حتى كدت أنزلق من شدة
استوائها وملاستها !

وكانت قاعة القراءة تبدو كأنها غرفة للسمر في بناء مجلس
اللوردات الانجلىزى . قد صفت فيه المقاعد الجلدية ومقاعد الخمل
ذات المساند العالية ، وتجمعت بعضها حول المدفأة ، كما وضعت منضدة
واسعة صفت عليها أنواع الجرائد الانجلىزية والأمريكىة وغيرها
من الصحف الأوربية .

ومع أن رغبتى فى القراءة كانت ضعيفة بيد أنى أحسست
شئ من المتعة من تقلب عشرات الصحف والمجلات المصورة
لمعروضة فى هذه القاعة ، كما تقلب مؤلفات جديدة فى مكتبة من
لمكاتب بقصد الاطلاع أو الشراء .

ثم أقبلت على خادمة سمحة الوجه حلوة الابتسامة تسألنى
ماذا أتخىر من أنواع الشراب ؟ فأفهمتها بأدب ورقة أن قد أخذت

كفايتي من القهوة في الدور الأرضي ، فشكرتني وانصرفت ،
ولكنها انصرفت لتعلن رئيس الغرفة بمقدمي ، فجاء الى بعد
قليل يكرر على السؤال لأرد عليه بمثل هذه الاجابة .

ولكنه لم يقتنع إذ أخذ يشرح لي تقاليد هذا المكان
واستقلال طوابقه وغرفه ، فرواد الصحف مجبرون على تناول
قهوتهم في هذه القاعة . ولعل خلوصاحبنا من العمل في هذه
الساعة هو الذي جعله يطيل في الحديث والمناقشة ، التي انتهت -
بأن أقتنع بدفاعي ووجهة نظري . وذلك بعد أن وعدته بأن هذه
القاعة ستكون مكاني المختار منذ تلك الليلة

الساعة الثامنة .

كانت الساعة الثامنة ، هو الموعد الذي ضربته لأترك مقهى
فرستهموف . فما أن دقت ساعة قاعة المطالعة الثمانية بصوت
منخفض رزين حتى كنت في طريقي إلى الطابق الأرضي ثم
إلى الشارع .

لقد بدأ الطريق مظلماً موحشاً ، إذ لم تنقطع أمطار ذلك
اليوم بل زادت شدة وانهمارا فبدأت أرضه صقيلة كالمرآة وقد

انعكست عليه مصابيح الشارع وأنوار بعض المطاعم التي بقيت
وحدها مفتوحة إلى تلك الساعة .

وعند مدخل أحد المتاجر المغلقة ، وقفت عجوز تبيع
صحف المساء ، وتصيح بصوت رفيع متهرج كأنه صوت طفل
يستنجد أبويه ؛ وقد نفذ الماء إلى ما تبيعه من هذه البضائع
الورقية التي عملت على إخفائها تحت معطفها ، فكانت هذه
العجوز تجاهد المطر وخلو المكان ، كما كانت تجاهد الليل وضعف
الشيخوخة .

وكان ميلي إلى الاحسان إليها لاشك فيه ، بيد اني لم أكد
أضع هذه الرغبة موضع الفعل ، وأفكك أزرار المعطف والسترة
حتى كانت ساقى قد حملتني عشرة أقدام بعيداً عنها ، فابتلع هدير
المطر صوتها الضعيف الباكي ، فكنت كأني القافلة في صحراء
واسعة ليس لها أن تتوقف أو تنكص أو تتراجع !

وبدت المحطة ، بأنوارها المتدفقة من كل نافذة ، وبساعتها
المضيئة ، وبعشرات السيارات الجاثمة أمامها ، وبصفيرها ووضوضائها
الذي تخيلت بأنني كنت أسمعه ، لقد بدت فعلاً كأنها الواحة في

تلك الليلة البهائم ، وكنت فعلا ذلك الغريب المتعب المجهد ،
الذي ليس له إلا أمل واحد ، هو ان يلحق بالقافلة التي تنتظره .
وكان أول ما فعلته أن استرجعت حقائبى من مخزن الأمانة
وجررتها الى ركن هادىء . . .

.. فلسفة الحقائق ..

للحقائب أثرها وخطرها فى حياة المسافر !
والمسافر المحرب يعرف قيمة الحقائق ، إذ يعرف ما يجرمه
عليه سوء اختيارها من متاعب ، وحسن اختيارها من غم
يعرف أن الحقيقة للمسافر كالملابس التي يقول عنها شكسبير
أنها تصنع الرجل .

وكم من حقيقة كانت مصيبة على صاحبها ، كانت سببا فى
الحد من قيمته وفضله ووجاهته ولا ينقذه حتى ماله ، وكم من حقيقة
فعلت كالسحر فى تسيير الأمور وتذليل المتاعب ؟

إذ لكل حقيقة شخصيتها ، ولكل حقيقة تراها على رصيف
المحطة حكاية وقصة تحدثك بها عن صاحبها ، وهى قلما تكذب
أو تمارى فى الحقيقة . وليست الحقيقة الجديدة ، وليست الحقيقة الجلدية

الغالية ، هي التي تتكلم بأنفة ونخار عن صاحبها بل انها قد تكون
شرا عليه ، قد تدل على أن صاحبها حديث عهد بالنعمة واليسر ،
تدل على أنه غريب في عالم السياحة لا يصلح رفيقا ممتعا في رحلة
قطار طويلة ، عالة على من حوله يسأل ويلحف في السؤال حتى
يضجر الجالسين !

وهل تخفى شخصية صاحب هذه الحقائق عن أعين الجمالين ؟
هل يجهل جمال مرسيليا ! وشيال تريستا ! وسائق التاكس
في باريس قرارة نفس هذا الوجيه ؟ أو شخصية السيدة التي
ترافقه وقد جمعت ألوان الحقائق وأشكالها واحجامها ! من
حقيبة اليد ، وعلبة القبعة الصغيرة ، إلى صناديق الملابس الكبيرة
التي تشبه صناديق أزياء الممثلين ؟

فلا تعود هذه الحقائق إلى موطنها لابعث أن يدفع صاحبها
ثمنا ، مقسوما بين الجمالين والشياطين وسائق العربات وبوابي
الفنادق ؛ لأنهم يعرفون أن هذا الضيف سوف لا يعود ، وأن
هذه الحقائق لا رجعة لها .

ولست حقائق الورق المضغوط إلا فضيحة لصاحبها أينما

ذهب ، ولو كانت جديدة لامعة مصقولة ، فاذا دخل بها فندقا
من الفنادق الكبيرة رماه حارس بابه بنظرة استنكار قاسية ،
كأنه يربأ بفندقه أن يحوى مثل هذه الحقيبة ولو دفع صاحبها
الأجر كاملا غير منقوص .

وبعد ، لم تبق إلا طائفة ممتازة من الحقائب ، الحقائب الجلدية
القديمة ، التي تبدو كأنها قد جاهدت طويلا وطويلا جدا على
أرصفتة المحطات ، وفي أركان القطارات ومخازن الأمانة ، تبدو
عظيمة فخورة بما ألصق عليها من عشرات البطاقات الملونة التي
دونت عليها أسماء الفنادق ، وهي التي كانت يوما من الأيام
ضييفة بين جدرانها .

هذه الحقائب القديمة تعرف كيف تحترم نفسها ، وتحترم
صاحبها ، فهذا الرجل يدخل بملابسه التي بدت عليها مظاهر القدم
من فعل القطارات ، يدخل بها أنحر الفنادق وهو واثق بأن كل
صدر مفتوح له ، فهذه البطاقات المصقولة تعمل كالشهادات
والدبلومات في عالم السياحة !

وترى بعضهم يعرف سر هذه القصة ، فلا يني أينما ذهب

من أن يسجل زيارته في كل فندق ينزله بلمصق شهادة من هذه
الشهادات التي يراها يتمكن لصقها ، إذا عملت الأيدي الطائشة
على تمزيقها حرصا على جمال الحقيبة !

والرحالة المحرب يعرف كيف يقتصد في حمل حقائبه ،
فالحقائب كالأطفال في السفر البعيد ، تحتاج كل واحدة إلى رعاية ،
تحتاج إلى المكان الفسيح وتحتاج إلى من يحملها برفق ، ويعنى
بها إذا ألم بها ما ينتاب الحقائب من أدواء وأمراض ، وأمراض
الحقائب وذاك الله مستعصية مرذولة في كثير من الأحيان .

أمراض الحقائب

كنت يوما في برنديزي أنتظر قطار المساء إلى روما ، فكان عليّ
أن أأخذ حقائبي في مستودع الحقائب في الميناء ، وكان من بين هذه
الحقائب حقيبة زرقاء اقتنيتها في لندن وقد خصصتها بعناية ممتازة
إذ جمعت فيها أدوات الزينة وعلب السجائر وأدوات الكتابة من
أوراق وأقلام ، ثم حزم المناديل والياقات والأزرار مما يحتاجه
اللباس الأجنبي .

فلما قرب موعد السفر ، تخيرت حمالا ضخما من حمالي الجمر
للقيام بمهمة نقل هذه الحقائب من المستودع إلى العربة المنتظرة ، ولعله

كان ممن روضوا أذرعهم على حمل الصناديق الثقيلة ، إذ أنه ما كاد يرفع
هذه الحقيبة ، حتى تنفككت أقفالها وفتح غطاءها وانتشر ما فيها
فجأة بين أركان المكان ، فلم تهبط على أرض الغرفة إلا فارغة .

فكان هذا الحادث في المحطة الهادئة ، دافعا لان يجمع كل
من فيها من عمال وحمالين ، الذين راخوا يجمعون هذه الحاجات
وهم يقلبون كل ما يلتقطونه ويفحصونه قبل وضعه في الحقيبة ،
شأن كل إيطالي صميم ! بينما أنا واقف وقد تملكني الغيظ
والدهش والحلق حتى عقد لساني وعقد ذراعي عن الحركة .

وانتهى الأمر بأن وزعت علبة السجائر التي اكتشفها هؤلاء
المعاونون بين هذا الجمع الزاخر من الحمالين والعمال ، ثم إنهم جاءوا الى
بجبل غليظ مما تربط به الصناديق وجوالق الفاكهة ، وعقدوا به
هذه الحقيبة المريضة فاستحالت في لحظة إلى شيء مما يحمله البحارة
في أسفارهم من سقط المتاع !

وهذه الحقائق التي تنفكك من لمس الهواء ، ليست أدعى
للحلق وأثارة الغيظ من زميلتها التي تأتي أن تنفتح ولو كنت في
مسيب الحاجة إليها ، تأتي أن تنفتح ولو كنت ممن لا ينسون

ربطة مفاتيحهم ، فلو عالجتها برفق دار المفتاح في أقفالها دون أن
يفتحها ، وإذا أغلقت المعالجة وقف في حلقها ؛ حتى تحس بأنك
أمام شخصية شاذة عبيدة لثيمة الأصل ، تتعبدك إذا دعتك
الحاجة إليها .

وينظر إليك الجالسون حواليك وهم يرقبون هذا الجهاد بينك
وبين حقيقتك وقد ارتفعت حمرة الخجل والغضب إلى وجهك ،
حتى تحس بأن حلا واحداً هو الذي يحررك من هذا المأزق
السمج ، وذلك أن تلقى بهذه الحقيبة من النافذة وتجلس بعد
ذلك هادئاً في مكانك ، كأنك انتقمت لنفسك من عدو جبار .
- تحس - وأنت في محنتك - بأن هذه الحقيبة أسمى أنواع
الحقائب ، وتنسى وأنت في ثورة غضبك تلك الطائفة من الحقائب
التي إذا فتحتها لا تعرف كيف تغلقها مرة أخرى !

وقد تكون في قاعة الفحص الجرمي ، وقد تكون في القطار
وقد ألتف حولك جمع من النساء يراقبون هذا الصراع العجيب
فتضع الحقيبة على أرض ، وتجلس عليها وتدوس على غطاها
بركبتيك وقد تصل إلى أقفالها ، ولكنك لا تكاد تتف حتى
تراها تنفجر ، كالذي قد أسر الضحك ساعة من الزمان !

وليس لك في مثل هذا الموقف إلا أن تطلب المعونة ممن
يراقبونك فيجلس منهم اثنان على الحقيبة ويسعى ثالث إلى
التوفيق بين أفعالها وهكذا تنجح أخيراً . . .

عودة إلى الخطاب

جمعت حقايبى إلى جانبي في ركن هادىء مظلم بعض الشيء ،
ولم أرغب في الجلوس في إحدى قاعات المحطة خوفاً من خطر
الانصراف إلى مراقبة الجالسين والقادمين ، ولم تبق لدى الإفرصة
واحدة سانحة لكتابة هذا الخطاب .

جلست على عربة مما تستعمل لنقل الحقايب وفتحت حقيبتى
الصغرى على عربة أخرى بجوارها ، وأخرجت دواة المداد الأخضر
الذى استعمله منذ سنين ، وملاّت القلم ، كما أعددت المظاريف
والأوراق من جديد .

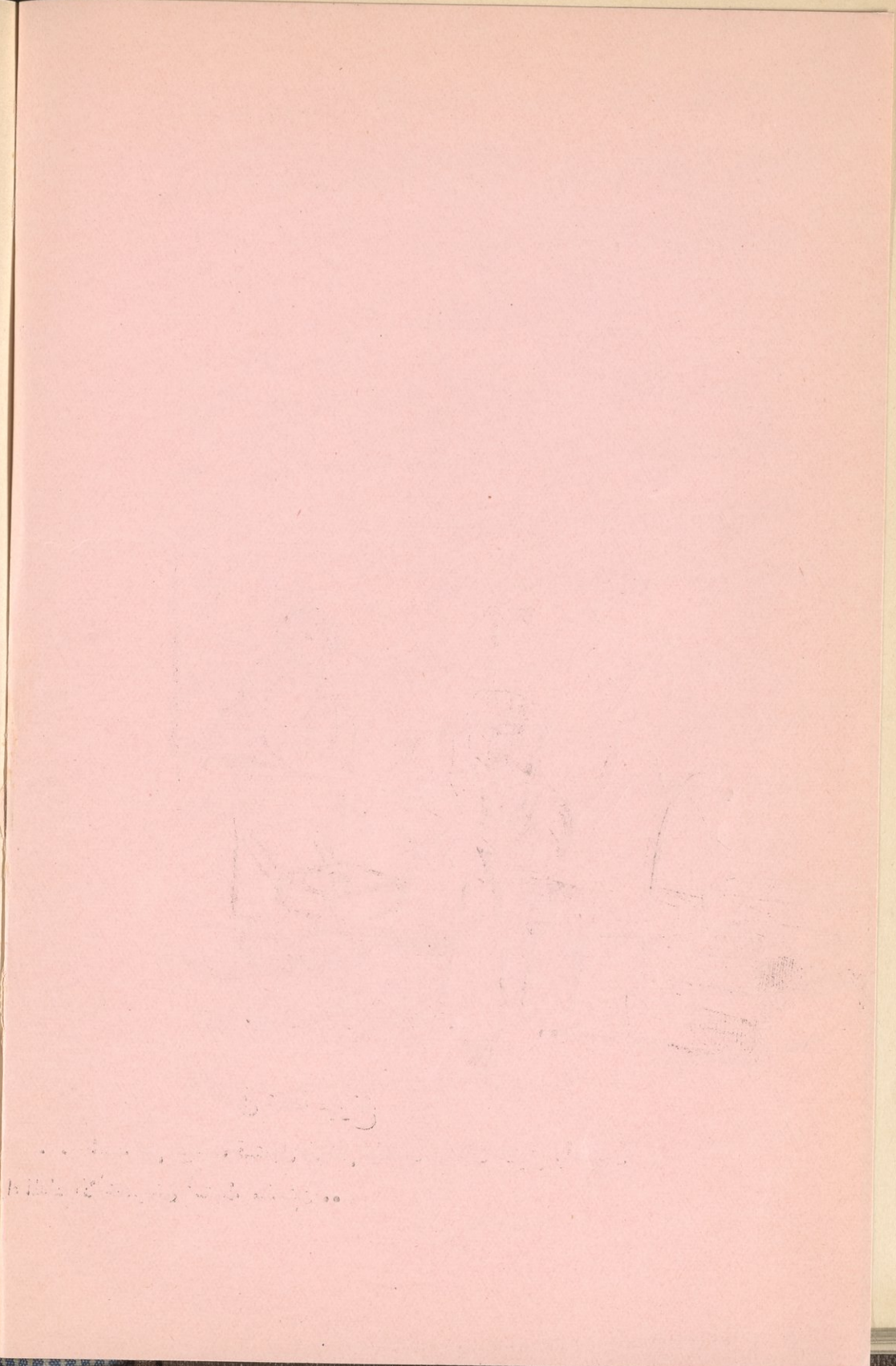
وعند ما خطت على رأس الخطاب « حضرة صاحب
السعادة » تلفت حولى وأنا بين هذه العربات والحقايب فلم أتمالك
نفسى من الضحك ؛ إذ بدت لعينى سخرية الحياة العجيبة ، فهذا
الخطاب الذى سيحمل إلى صاحب من أصحاب السعادة ويقدم



في محطة ميونخ

.. جلست على عربة مما تستعمل في نقل الحقايب وفتحت حقيبتى وأخرجت

دواة المداد الأخضر الذى أستعمله منذ سنين ..



... ..
... ..

بالاحترام الواجب ، أرادت الاقدار إلا أن أكتبه في هذا
الركن المظلم من المحطة ، بعد أن عجزت أسبوعاً كاملاً عن أن أجد
في نفسي جلاً وقدرة على الجلوس لتنميته وتحريره .

ومما زاد في سخرية المجلس أن جالس على عربة أخرى
مجاورة شيال يتناول عشاءه ، وقد فرش صحيفة على ظهر العربة
وضع عليها قطع الخبز الأسمر وشرايح من السجق وشيئاً من
الكوامخ والملح ، وراح يتحدث إلى بغمه الممتلئ عن نظام الشحن
والتفريغ ، وعن محتويات الصناديق وغير ذلك من لغو الكلام ،
بينما كنت أتصيد الكلمات الرنانة والعبارات المنمقة في تحرير
خطاب صاحب السعادة . .

وكان من فضل الله أن انتهيت من كتابة هذا الخطاب ، فلم
أتردد في إقفاله دون أن أراجع ما كتبت ، وقت أبحث عن أول
صندوق للبريد ، ولو أنني أجلت ذلك دقيقة أخرى لكنت
حملت هذا الخطاب بنفسى إلى مصر!

وفي العام الماضى كتبت جملة من الخطابات صرفت في
إعدادها وتحريرها أسبوعاً وكنت أتقلها من جيب إلى جيب ،
وأدور بها شوارع برلين ولا أجد صندوقاً واحداً من صناديق

البريد حريا بحمل هذه الأمانة ، ثم جاء وقت السفر وما زالت
الخطابات في جيبى ، فقلت لنفسي إن في صميم مصالحتي إرسال هذه
الخطابات من المحطة نفسها . ثم تركت المحطة إلى القطار فرددت
يقينا بان الخير كله في إرسال هذه الخطابات من هذا القطار
السريع . وتوالت المحطات وأنا أحاول أن أتخير واحدة لهذا
الغرض حتى دخلنا الحدود النمسية ، وكانت السماء تمطر بغزارة
في هذا المسكان المنعزل بين الجبال . فهرولت إلى رصيف المحطة
باحثا عن عربة البريد ، فلم يرد حارسها أن يتسلم هذه الخطابات
لأنها ذات طوابع ألمانية ونحن قد خافنا هذه البلاد منذ ثلاث
دقائق .

وأخذت أحاور الرجل ، حتى أقنعت بتسلم هذه الخطابات ،
ولعله أبدى رغبة الاقتناع حسما لهذه المجادلة العقيمة تحت المطر ،
وربما كان مصير هذه الخطابات يد ذلك الرجل .

وفي البندقية ، كتبت مرة جملة من البطاقات ، وأعدتها
للإرسال إذ أن مهمة تحرير هذه البطاقات بطبيعتها يسيرة ، ثم أنى
نسيتهما في جيوبى ، وأقلعت بنا الباخرة إلى مصر ثم توالت الموانى
والشواطىء حتى بدا ساحل الإسكندرية ، فأخرجت هذه

البطاقات ذات الطابع الايطالية فوجدت أن بريد السفينة قد
حزم ، وأن الطابع الايطالية قد فقدت صفتها منذ أن دخلنا مياه
رأس التين !

مشرب اللبن

حملت هذه الحقائق واحدة واحدة إلى بهو المحطة الكبير ،
ووضعت الحقيبة الكبيرة في مدخل الرصيف الذي كتب عليه
« ميونخ — سالسبرج — تريستا »

وكان مدخل هذا الرصيف مغلقاً في تلك الساعة ، إذ أن
ما بقي من زمن الرحيل ساعة كاملة ، وكانت إلى جانب المدخل
فتاة وضعت حقيبتها الصغيرة عند قدمها وراحت تنظر بعيون
صامتة إلى الظلام كأنها تنتظر هذا القطار بلهفة ورغبة ، فلعلها
عائدة به إلى وطن أو حبيب ! وأصدق القارىء أن هذه
الفتاة نظرت إلى وابتسمت ! فقلت في نفسي إنها ابتسامة الغريب
للغريب ونحن على سفر قد يطول بنا يوماً إذا شاء هذا الحظ !

ثم أنني تركت هذا المدخل المغلق إلى مشرب من مشارب
اللبن في المحطة ، ومشارب اللبن وجدت طريقها إلى النجاح
في هذه الأيام في أوروبا ، ووقفت على قدميها تنافس حانات

النبيد ومشارب الجمعة حتى مشارب الشاي في لندن ، وقد سبقتمها
دعاية واسعة «إشربوا اللبن كثيراً...» هكذا تقرأ في كل مكان.

ولا شك أنك لتعجب حين تجد رجلاً ، ممن كنت لا تراهم
إلا أمام منصة « البار » يتناول الكأس بعد الكأس ، يطلب
كوبه بها رطل من اللبن الدافئ ، ويمصها بأنبوبة من الورق
وهو منحني عليها كأنه طفل رضيع .

وكان عليّ أن أملاً بزجاجة السفر بماء يغلي ، خلط هذا الماء
ببعض الأدوية مما استعمله للوقاية من الزكام ، فشربت كوبه
اللبن الفاتر حتى نضج العرق من كل جوانبي بفضل ما كنت
أرتديه من ملابس مزدوجة وأحملة من أدوات وأجهزة ؛ وكان
المكان هادئاً رزيناً ، وكانت وجوه الفتيات الخادومات وديعة
نضرة ، خير عنوان لما يبعثه من لبن وزبد وقشدة .

ثم جاءت إليّ الخادمة بزجاجة الماء الساخن ، فخرجت بعد
إن شكرتها على عطفها .

وعندما عدت إلى مدخل الرصيف ، كان قد التأم جمع
من المسافرين نثروا حقائبهم على الأرض ، وراحوا يتدافعون .

الكسب حق أولوية الدخول إلى الرصيف . وبين هؤلاء وجدت
صديقتنا الفتاة في مكانها ؛

ثم ابتسمت تلك الفتاة إلى مكاني ، فحمدت الله في سرى
على رحلة سعيدة موفقة !

ثم أقبل قطار محلي ، وأخذت الفتاة تلوح بيدها إلى شاب
مقبل من ركاب هذا القطار ، سلمت عليه بلهفة . ثم اختفيا في
وسط الزحام .

فوقفت في مكاني بين صف المنتظرين ، أحلل كنه تلك
الابتسامات التي تمنحها بعض الشفاه بكرم وتبذير ، ثم أننا
لأنلث حتى ننسى أصحابها إلى الأبد !

كم ذكرتني هذه الفتاة ، بصديقتنا الجرية كلارا ترما ، التي
دعوتها فتاة الدانوب ، اذ جمع بيني وبينها هذا النهر ، وقربت
بيننا وبينها موسيقاه في ليلة مظلمة إلا من النجوم ومن أنوار
المركب السارى .

وما أسرع أن قلبنا الصحيفة ، فمضى كل شيء إلا الذكرى
والخيال . . .

كان ذلك منذ أربعة أعوام . .

أسفرت الشمس على الدانوب عند فينا ، ومسحت مابه
من جمال ومن فتنة . فأصبح مأوه كالحآ لا يعكس الأضواء
والأنوار ، كأنما علت صفحته مسحة من صدأ ، ولم يبق على
شاطئيه من شيء يخفيه الظلام ، فبدا سقيماً جامداً .

وعندما وقفت بي العربة عند طرف المدينة حيث المركب
الذي ينقلنا إلى بلاد المجر ، وأطلت برأسي إلى الشاطئ الطيني
الذي نبتت عليه أعشاب برية كالحلفاء ، وتبعثرت بين أركانه قطع
الأخشاب والصناديق الفارغة ، شعرت بأن هذه الحقيقة الجرداء
تسخر مني ، وتلهو بهذا الذي جاء يبحث عن السحر والخيال على
مياه الدانوب ، ومياه الدانوب أصبحت كأنها رجل الأعمال ليس
له الوقت ، وليس له يقين في مثل ماجئت أبحت عنه . . .

وجاءت العربات تترى تحمل رفاق السفر من فينا إلى
بودابست ، وسواء أكان هؤلاء الرفاق من أهل هذا المكان
أم من الذين استهواهم سحر الدانوب فرحلوا إلى فينا ،
سواء أكانوا من هؤلاء أم من أولئك فلا شك عندي أنهم

رفاق مرغوب في صحبتهم في مثل هذه الرحلة الطويلة ،
لا يقتلون الوقت في مراجعة دفاترهم ، أو تصحيح حساباتهم أو ترتيب
أوراقهم التجارية :

وكان الجمع غفيراً ، والوجوه باسمه لاهية : وقفت أستعرض
أصحابها من شرفة المركب وأنا أرد كل وجه إلى بلده ؛ فهذا
أمريكي بسر واله الفضفاض ، وهذا ألماني بوجهه العريض ، وهذه
سيدة مجرية بملابسها الزاهية ، وذلك شاب أنيق من شباب فينا
يبحث عن الراحة بعيداً عن مدينة المقاهي الليلية .

ومياه الدانوب الجيرية البيضاء ، وهذه المخازن التجارية
وأحواض البترول ، وتلك المعامل التي كانت آخر ما ودعناه من
فيينا ؛ كان كل ذلك سقيماً ؛ ولكن الحياة كانت نافرة متدفقة
من وجوه هؤلاء المسافرين ، لم تدع الملل يستولى على النفوس ،
فينزعون إلى النوم على مقاعدهم أو الاسترسال في القراءة .

وفي ركن من أركان البهو الأنيق الذي يقود إلى قاعة
الطعام جلست ، وليست لي رغبة في نوم أو قراءة ، جلست
أستعرض وجوه الهابطين إلى قاعات المركب . .

وحدث كما يحدث دائماً ، أن جلست في الركن الآخر من
هذا البهو فتاة !

وحدث كما يحدث دائماً ! أن أنظر إلى هذه الفتاة ، ويحدث
أن تكون هذه الفتاة منصرفه عن الجالسين تقرأ في كتابها !
ولا شك أن القارئ يرغب في أن تكون هذه الفتاة جميلة
فاتنة ، إذ أى معنى في أن أقص حكاية فتاة تلهو بالقراءة على
مياه الدانوب ، ما بين فينا و بودابست ، ولا تكون هذه الفتاة
آية من آيات السحر تنفث الفتنة وتستهوى الافئدة !

وكانت هذه الفتاة كما يرجو القارئ منى ، فتاة ككل فتاة
في سنها جمالا ، وإن لم تكن آية من آيات السحر الحلال أو
الحرام .

وكنت - كما يرجو القارئ منى - حريصا على النظر إلى
مكانها حتى استقرت نظراتي حيث هي ، وادمان النظر يولد الرغبة ،
والرغبة تخلق مواطن الفتنة والجمال حتى لا ترى العين إلا إياها .

ثم حدث كما يجرى دائماً أن تلتفت الفتاة حولها وهي تقلب
صحائف كتابها لتراني أنظر إلى مكانها ، فلا تأبه ولا تكثر
تم تراني مشابراً على ادمان النظر فتظنني ساهما مكسالا أو مفتوناً

ولكنني لم أكن هذا ولا ذاك ، إذ وجدت أن إدمان
النظر في مكان واحد وفي وجه واحد أقصد وأقل كلفة ، وهو
فوق ذلك قد ينتج نتيجة لم يكن لي أمل أو مطمع فيها .

ثم أني لحظت أن الكتاب الذي كانت غارقة بين صفحاته
كتاب انجليزي ، وكان غريباً أن تستهوى الانجليزية فتاة
لاشك في أنها من بنات هذا النهر حتى لتصرفها عن هذه
الرحلة المرحية . ولكن طبيعة القصص وترتيب أحداثها تستلزم
وجود مثل هذا الكتاب ، لتسبب وقائع رواية مثل هذه الرواية .

ثم تحول إدمان النظر من الفتاة إلى الكتاب ، وأبدت
إعجاباً بوجود هذا الكتاب على مياه الدانوب ، كأنما أنا حامى
الانجليزية والعامل على نشر لوائها ، ولم يكن ذلك خبثاً مني
ولكنها طبيعة في . أبدى انصرافاً عن الشيء الفاتن الأنيق ، إعجاباً
بناحية بعيدة عنه بعض البعد .

وكأنما هذا التحويل في النظر قد قرب بيننا ، إذ أن جرس
الغداء عندما دق أحسست بكثير ثمة في أن أدعو هذه الفتاة الوحيدة
إلى الطعام ! وفي مثل هذا الموقف كانت تعوزني المرأة حتى

اروض من طبيعتي وأكسر من تقاليدى ، ولكنها الوحدة
ثم ذلك المكان المنقطع من النهر حيث ينساب في بلاد التشك
كل ذلك كيف الأمور على هذا الوضع .

وقبل أن يثب إلى تفكيرى رأى يدعونى إلى التريث أو
الحيطة أو الروية مما يعطل الارادة ، كنت أدعو فتاة الدانوب إلى
الطعام ، وكأنا كانت الفتاة على بينة من هذه الدعوة ، لأنها لم تكن
تتعلم فى الاعتذار بل جاء عذرها هادئاً مسبباً أعقبته بالشكر ،
الشكر المقصود . . .

وكان المركب ينساب انسياباً ، وكانت أشعة الظهيرة تنعكس
لامعة على مياه النهر الفائضة ، وكان الجالس فى قاعة الطعام يطل
على الأدغال التى تغطى عبرى الدانوب فى ذلك المكان ، ومن حين
إلى حين كنت ترى وعلا يبرز من بين الشجيرات المتدلّية
على النهر يرد الماء بجذر وحيطة . ثم تصل إلى أذنيك نغمات الموسيقى
الوترية التى تعزف فى ردهة قاعة الطعام ، فتحس بأنك فى
مسرح حافل ، أو أنك تشاهد قصة سينمائية رائعة !

فلما انتهى الطعام رجعت إلى فتاتى المجرية ، رجعت إليها
وكأنا كنا أصدقاء من قديم ، فلم أعد فى حاجة إلى التمهيد

والتقديم ولا إلى صوغ أساليب خاصة منمقة في الحديث . وكان
كلامنا كان يبحث عن الآخر ، لافتنة وإعجابا برفيقه ، بل لأن
الجو قد تهيأ لمثل هذه الصحبة !

وعندما وقف بنا المركب عند الحدود الجرجية ، اشترت سلة
صغيرة من العنب رحنا نتقاسم ما فيها دون كلفة ونحن نتحدث
ونتجادل ، ونفسر ونوضح ككل رفيقين قديمين .

وركبنى الزهو والخيلاء واحسست بالتوفيق في الحياة
واحسست بكثير من الغبطة والهناء ولم اعد احاسب نفسي إذا
تكلمت أو شققت طريق وسط الجالسين والجالسات ، لأننى كنت
احسن بالثقة العريضة بالنفس وأنا فى رفقة هذه الجرجية الفاتنة !
وعند ما أقبلت العتمة ، كنا نشق أبهج مراحل الدانوب
وقد استحالت السيول الطينية التى تركناها فى فينا سلسلتين
من المرتفعات التى تغطيها الأحراج والغابات وتتوجها القرى البيضاء
والحمرء ، وأخذت الحياة تدب على النهر فكنا ننتقل من عبر إلى عبر ،
ومن قرية إلى قرية كأننا قافلة من الحجاج قافلة إلى الوطن تحيى
مستقبلها باليمن والشمال .

وعندما أظلم الليل وأضاءت هذه المرتفعات وارتفعت الموسيقى
من جوانب المركب بأنغماها المجرية الراقصة ، وشاركتها جموع
المسافرين بالتصفيق والغناء ، ثم بالرقص تحت أشعة النجوم
اللامعة ، شعرنا كأنما نحن في عالم سحري عجيب لانكاد نميز
فيه أجسامنا ، فلم نعد نرى إلا أشباحا فاتنة راقصة ، ولا نسمع
إلا نغم الموسيقى الساحرة ، أو همسا كأنه همس الريح ، أو
ضحكة منفجرة في ظلام الليل ، نحس بأنها صادرة من قلب
سعيد جد السعادة !

وعندما عزفت الموسيقى رقصة «الدانوب الأزرق» الخالدة
للموسيقى الألماني شتراوس ، أحسنا كأن أمواج النهر تحت
أقدامنا تتجاوب هذا النغم ؛ ولم تعد لنا طاقة لحبس عواطفنا
الجامحة .

وكانت صديقتي المجرية تشعر بهذه السعادة في صميمها ،
كانت مزهوة بنفسها ، فخورة بهذا النهر الراقص ، فخورة بأن هذا
الجمع المتحفز يحج إلى بودابست عروس الدانوب .

وكانت تسألني مرة كل دقيقة : ألسنت سعيداً وأنت في
الطريق إلى بودابست ؟ ألسنت سعيداً تحت سماء المجر ؟ ولكنها

لم تسأل عما إذا كانت هي مصدراً من مصادر هذه السعادة ؟
كانت تحس بذلك وأنا إلى جانبها أنعم النظر إلى وجهها في الظلام
ثم إلى مياه النهر التي تبدو وتختفي تحت أضواء المركب السارى
ولكن فخرها بوطنها كان مصدر كل سعادة ، كانت تريد أن
يطغى هذا الاعجاب بوطنها على إعجابها بكل شيء ؛ فإذا كانت
هي ساحرة فاتنة ، فلائن الجر هي مصدر للسحر والفتنة ،
وإن كانت عيناها جميلتين فلائن هذا الوطن الذي تفخر به
هو مصدر هذا الجمال !

ولم أشعر يوماً بفتنة المرأة بقدر ما أحسست بها حينذاك ، وأنا
بجوار هذه المجهولة نتحدث همساً ونحن متكئان إلى حاجز هذا المركب
السارى فى الظلام ، كأن الوحي والالهام قد هبطا على أكتافنا
فنسينا كل شيء إلا وجودنا !

كان هذا الاحساس كأنه الحمى تشعر بأنها تسرى فى
أعصاب ذراعك المتكئة إلى حاجز السفينة ، ثم إلى كتفك
وعنقك فرأسك ، حتى إنك لتعجز عن الحركة أو التلفت اللهم
إلا إلى حيث كنت تنظر !
لم يكن هذا جياً . . .

ولم تكن تلك شهوة جامحة . .
ولكنه الاحساس بالفتنة وأنت بجانب هذه الحسنة المجهولة
التي تعرف بأنك سوف لاتراها بعد ذلك ، وأنتما تسريان في ظلام
الليل على مياه الدانوب كأنكما بعض الأحلام

ذكرى فاجعة

وفي خلال الساعة الباقية على وصول القطار — إذ كان الموعد
المضروب منتصف الليل — قضيت مهمات جدية بالاعتبار .
فكان لابد من أن أتأكد من صحة تذاكر السفر ؛
وكان لابد من أن أتخلص من فضلة النقود الألمانية ؛
وكان لابد من اقتناص ركن مريح في القطار لقضاء الليل .
فما اقترب الموعد حتى أقبل حارس الرصيف واعتلى مقعده
المرتفع ، وبدأ يعد مقراطه وقلمه وأوراقه .
فكنت أول من اقترب منه عارضاً ما معى من التذاكر
راجياً أن يطابقها بمواعيد هذا القطار ، خوفاً من خطأ ليس في
الحسبان . وهذا الخذر وهذه الدقة ليست في طبيعتي ، وأنا من
الذين لا يدونون مذكرات ولا ملاحظات في تنظيم رحلاتهم ،
ولا يقبلون الأمور على كل وجه قبل أن يبرموا أمراً من الأمور ؛

ولكن هذا الحذر قد علمتنيه التجارب ، بل تجربة مريرة
سوف لا أنساها ، وإذا نسيتهافي كل مكان فاني لذا كرها
كلما خطر لدى اسم ميونخ ، وعلى الأصح محطة ميونخ ، وكيف
أنساها وقد حدثت المأساة في هذا المكان نفسه وفي ساعة متأخرة
مثل هذه الساعة منذ عام مضى ! .

القطار الأخير

قبل أن يرحل القطار بخمس عشرة دقيقة ، ولجت هذا الياب
في العام الماضي ، وعرضت على حارسه دفتر التذاكر ليراجع
ما شاءت له دقته ، وكانت جيوبى منفوخة بعشرات من الهدايا
الصغيرة ويداى مشغولتين ببعض اللقائف والحقائب .

ولم يكن فى جيوبى من النقود الألمانية إلا ثلاثون فنشا هي
كل مابقى بعد أن جمعت هذا الذخر من الهدايا .

ولم تكن هذه الهدايا ذات نوع معين أو غرض خاص ،
بل إننى جمعتهافي النصف الساعة الأخيرة عند ما اكتشفت أن
فى جيوبى من النقود الألمانية ماأنا فى غنية عنه ؛ فاشتريت
زجاجات من العطوروعليا من السجائر وتبغا للغليون ولفافات

من الفاكهة المجففة وصندوقا من الحلوى وآخر من الشوكلادة.
ثم مجموعة من الصحف والمجلات ثم خمس علب من الكبريت ...
وليس عجيبا أن أقف أمام حارس الرصيف حاتقا من فعل
هذا الحمل الثقيل ، وهو يقلب تذاكر الدفتر بامعان ، حتى إذا
انتهى أعاد القراءة ، ثم رفع نظارته ونظر إلى وأشار إلى كشك
زجاجي به أحد رؤساء المحطة ، وطلب مني أن أعرض عليه
هذه التذاكر !

عند ذلك احسست بأن هنالك سرا وراء كل هذا ، ولكني
لم أضع وقتا بل ذهبت للرجل وعرضت عليه هذه التذاكر ، ذاكر
له أنني من ركاب هذا القطار الى البندقية حيث تنتظرنى الباخرة في
ظهر الغد ، فقلب الرجل الدفتر وهز رأسه ، وأجابني بأن هذا القطار
لا يتبع الطريق الذي حددته هذه التذاكر ولو أن الغاية واحدة ،
ويجمل بي أن انتظر إلى صباح الغد؟! ..

قلت ، ماذا . . . ؟ ! أليس هنالك منطق أو ذوق أو تفكير
عند هؤلاء الناس ، يحررهم من مثل هذا السخف والمراء في منح
النصيحة ؟ نظرت إلى الرجل بعين مفتوحة من الدهشة ، وأفهمته

أن الموقف ليس مما يحل على هذه الصورة البسيطة ، فلا بد لي
أن الحق بهذا القطار إذ الباخرة في انتظاري وإن فقدته فقدت
الباخرة ، ولست اجهل مايجره ذلك من رزايا وبلايا .

ولعل الرجل فهم كنهه موقفي ، إذ أنه طلب مني عرض
هذه التذاكر في مكتب معين في المحطة خصص للسفار الأجنبية ،
وفي يد عامله وحده أن يحل هذه المشكلة ، دون حاجة إلى تبديل
قطار بقطار أو تذكرة بتذكرة .

وكانت هذه الدقائق تمر كالبرق ، وقد تصبب مني العرق
وهدّنتني هذه الفاجعة التي هبطت علىّ دون انتظار . فلما وقفت
أمام نافذة هذا المكتب ، أخذت أشرح لصاحبه حكايتي ، وراح
هو يراجع هذه التذاكر ، ليصل إلى النتيجة التي سبقه إليها زميلاه .

وكان الرجل سمح الوجه رضي النفس ، فهون علىّ من الأمر
وابدى رغبته في أن يجري تعديلا تافها في بعض هذه التذاكر
حتى تصبح صالحة للعمل ، فشكرته وأبديت له عظيم تقديري ؛
ثم أنه ذكر بعد ذلك ، أن هذا التعديل التافه لا يكلفني إلا سبعين
قنشا ، أليس هذا بالشيء الزهيد؟!!

عند ذلك أحسست بالفاجعة الجديدة ، فأرسلت يدي إلى
جيوبى أجمع ما بقى من شتات الفنشات الصغيرة الحمراء ، التي
أردت قبل ذلك بقليل أن أتخلص منها إذا وجدت من يقبلها ،
وكنت كلما عثرت على قطعة من هذه القطع ألقيت بها على أرض
النافذة والرجل منحني على النافذة ينظر إلى بامعان .

حتى إذا أخليت جيوبى من هذه السحاتيت ، رحنا نعد
ما جمعت ، فاذا بهذه الكومة لا تعدو قيمتها ثلاثة وثلاثين
فنشا ليس إلا .

فنظر إلى الرجل يطلب البقية ، ثم نظرت إليه أطلب المعونة
فقلت له ما العمل وايس في جيبي غير هذه السحاتيت ،
وليس لى إلا أن أعرض للبيع بعض هذه الهدايا التي اشتريتها
قبل ذلك بدقائق معدودة في سبيل هذه السحاتيت الباقية ...

ولم يرد الموظف أن يستبدل تذاكر السفر بعلب السجائر ،
وزجاجات العطور . ثم أننا دخلنا في حوار بين استعطاف من
جانبي وتفسير للأصول والقوانين من جانبه . وقد مرت الدقائق ولم
تبق إلا سبع ، والمسافة بين هذا المكتب وبين القطار ليست
باليسيرة .

و شاء الله أن تهبط على فكرة جديدة ، إذ ذكرت ما كنت
أحمله في إحدى حقايمي من بعض النقود الأجنبية ؛ من إنجليزية
وإيطالية وفرنسية ، فعرضت على صاحبي هذا الحل ، فقبله رافة
بني ، ودفع المبلغ الفريد من جيبه الخاص ، فسلمني التذكرة وأنا
أكيل له ما في جعبتي من كلمات الشكر والتقدير .

حتى إذا وصلت إلى القطار بحثت عن مكان الحقيبة فلما
أجدها ، اذتبدت العربات أثناء غيبتى ، فلم أكتشف مكاني
إلا وقد تحرك القطار .

ووقفت في النافذة أنظر إلى بطاقة صغيرة كتب عليها اسم
المكتب الذى يعمل فيه هذا الرجل ؛ وأذكر كيف أنه
سينتظرنى ، وسينتظر منى أن أرد صنيعه بمثله ، وكيف أنه بعد
أن يطول انتظاره سيحكم على بنكران الجميل وبالخسة ولؤم الطبع
وكيف أنه سيحكى هذه الحكاية لكل من يقابله ؛ وأنا ، علم الله
أبعد الناس عن النكران .

رجعت إلى مكاني من الصف بعد أن تأكدت من صحة

هذه التذاكر ، وأخذنا ندخل واحدا واحدا إلى رصيف المحطة ،
وأكثرنا من الأجانب الراجعين مع طيور الشتاء إلى بلاد الجنوب
وكان كل واحد يحمل في يده حقيبة صغيرة حتى يكون له الحق
في حجز مكان من الأمكنة ، والقطار الموعود لم يأت به ، حتى
بردت رغبة هؤلاء المنتظرين والقى كل منهم حقيبتة على رصيف
المحطة وراح يبحث عن بقية متاعه . واكثر السيدات من
السؤال والاستفهام كلما اقترب عامل من عمال المحطة ؛ وهذه
الاسئلة لا غاية من وراءها ولا رغبة ملحة في قائمها ، ولكن
للسفر رهبة في بعض النفوس .

فتسمع كلما اقترب أحد هؤلاء العمال من امرأة من المنتظرات

— هل هذا القطار المسافر إلى تريستا ؟

فيجيب بإيماءة رأسه .

— وهل تراه يصل في الموعد المقرر ؟

فيجيب كذلك بهز الرأس وهو يشعل غليونه

وإذا حدث وتبسط الرجل في الحديث توالى هذه الاسئلة

— وهل سيكون مزدحما !

فيجيب الرجل بلا أدري

— وهل من المنظور أن نجد لنا مكانا للاضطجاع والنوم ؟

ربما ولم لا !

وهكذا ينتقل هذا الحديث من مسألة إلى مسألة لاتعدو

حكاية القطار ، وموعد قيامه ووصوله

ومن بين هذا الجمع تجد ذلك الذي لا يهدأ له بال ينقل

حقيقته من موضع إلى موضع على الرصيف ، وهو يؤمل أن

يكشف أمتع نقطة يهاجم بها هذا القطار بمقائبه إذا أقبل .

ثم إن الضجر بدأ يتملكنا بسبب تلكؤ هذا القطار وأخذ

حماس الواقفين يبرد كثيرا فلم يعد أحد يسأل عن موعد

وصول أو قيام ؛ كأن هذا التلكؤ قد ضيّع من هيبة القطار

وجعل الاهتمام بساعة وصوله ضعيفا .

وكان كلما سمع الواقفون صاصلة ، أو بدا لهم ضوء من بعيد

تتجه رءوسهم نحو مصدره حتى يتبين لهم خطأ البصر وخطل السمع

فيرجعون إلى ما كانوا فيه من حديث ؛ ولكن هذا الانتظار

مع مرارته — إذ كان كأنه الأبد — لم يدم إلى ما شاء الله ، لأن
القطار المنتظر جاء يتهدى من بعيد كأن سنة من النوم قد أخذته
فاستقبلته صاصلة من علامات الرصيف وهممة من الواقفين ،
واصوات الشياطين العمال تتبادل الملاحظات والأوامر .

الهجوم

وتأهب كل واقف لمهاجمة العربات ، كأن هذا القطار حبيب
سريع الصد والهجران . وأشد ما تبدو الأناينة والقلق في ميون
هؤلاء الواقفين ، الذين ينظر كل واحد منهم إلى الواقف بجانبه
كأنه غريمه اللدود ، ومنافس خطر ينازعه حق من حقوقه الثابتة .
وقبل أن يقف القطار كان بعض هؤلاء المجاهدين قد وثبوا
على درجات العربات القريبة ، وقفلوا ممرات القطار بحقائبهم
الكبيرة ، وراحوا يتخيرون أفضل الدواوين ، مع أن جميعها
متساوية متشابهة وكلها خالية ، ولكن انانيتهم تسول لهم أن
هنالك امتيازاً وفروقا بين الأشباه والنظائر . حتى إذا انتهى الواحد
منهم من اختيار ديوان من الدواوين نثر متاعه بين أركانه فوضع
القبعة في ركن والمعطف في الركن المقابل ، وجعل حقائبه تحتل
المقعد الآخر بأكمله ، ثم وقف بنفسه على بابه كأنه أسد يحمي

عريته من خطر المفاجأة ! وهو ينظر شذراً إلى كل من تسول له
نفسه أن يقترب من الباب أو يحاول لخص المكان .

وترى من سماجة مثل هذا الرجل أن يدع مسافراً واقفاً
الساعات في دهليز المركبة ، دون أن يجد من الحياء ما يكفي
لدعوة هذا المسافر الحجول لمشاركته في الجلوس على مقعد تمدد عليه
كأنه في داره الخاصة .

ولو كان هؤلاء الثقلاء لا يسافرون إلا نهاراً لكان الأمر .
ولكن المصيبة أن هناك أسفاراً ليلية طويلة مملّة لا بد فيها من
النوم والراحة ، ولا يمكن لمسافر مهما أوتي من رغبة في التطلع
إلى المحطات وما إليها أن يقف ليلة كاملة في دهليز المركبات ،
بينما يسمع شخير النائمين بجواره .

ومن العدل أن تقرر أن أولئك المسافرين الذين لا يبدأون
رحلاتهم إلا في منتصف الليل بعد أن يأوى كل مسافر إلى
ديوانه مصدر من مصادر الفزع واقتلاق الراحة ، لاسيما لمن كان
حديثاً في السفر الطويلة . ولكن الحقيقة أن أكثر هؤلاء
خلو من كل ذوق أو مجاملة .

بعد أن تجاهد النوم حتى الساعة الأولى من الصباح ،

وتطفئ أنوار الديوان وتسدل ستائره حرصاً من البرد ، تفاجيء
بما تحسبه في أول أمره حلماً مفزعاً ، ولكن هذا الحلم يستحيل
حقيقة أشد فزعاً ، عندما تحس بمن يلكرك في جنبك فتفتح عينيك
فجأه على ضرر باهر كأنه الحريق وعلى مارد مفتول الشارين يصيح
بك أن أجلس بشيء من التأدب ويندرك أن تأخذ حذرک من الحقائق
التي يضعها فوق رأسك ، والتي قد تهوى عايك إذا استسلمت إلى
النوم والاضطجاع

وإذا كان هذا الرجل مسافراً إلى محطة قريبة ، أو إذا كان
من هواة القطارات فالبلية أعظم ، لانه قد يحلو له أن يجلس في
هذه الساعة المتأخرة من الليل يأكل وجبة كاملة ، أو أن يخرج
من حقيبته كومة من المجلات والجرائد والقصص ، واحدة
واحدة ؛ كأن الوقت العشي حين تحلو القراءة

وفي ليلة من ليالي هذا الصيف قضيتها في القطار من مرسيليا
إلى استراسبورج انتفضت فجأة بعد أن انتصف الليل على حركة
شديدة وأصوات عالية وتدافع حولي ففتحت إحدى عيني على نور
الديوان القوي الذي أضيء جميعه في تلك الدقيقة ، لأرى ثلاثة
من الفرنسيين في لباس الجيش وقد جلسوا يتسامرون ويدخنون

ويأكلون ويغنون دون أن يراعوا مجاملة للناعمين حولهم . وليس
لك في هذه القطارات الفرنسية أن تحاول توجيه نظر أحد إلى
مثل هذه التقاليد ، لأن ذلك قد يدفع رفيقك الفرنسي إلى أن
يأخذ حريرته كاملة في المناقشة أو الغناء . . !

الرحيل

وفي أثناء هذا الهرج شققت طريقى إلى المركبة القريبة ،
وأودعت حقائبى أحد هذه الدواوين إذ لم يكن الزحام بالغاً شدته
في تلك الليلة . حتى إذا انتهيت رجعت إلى رصيف المحطة أقتل
الدقائق الباقية بفحص وجوه الركاب في جميع درجات القطار ،
على اكتشاف وجها مقبولاً أو سحنة معروفة .

ثم إننى أضعت دقائق فى تقليب ما على عربة الصحف من
مؤلفات و صحف وقصص ، حتى إذا انتهيت سألت صاحبها عن
بعض مجلات لا يحملها فى عربته ، ثم استحال الحديث إلى كلام
عن الكتب ، فكلام عن اللغات ثم عن البلاد الأجنبية ، وانتهى
بنا المطاف إلى الكلام عن إقامتى فى برلين ذلك الصيف وعن
رحلتى الراهنة إلى مصر .

ثم بدأت حركة رحيل القطار . فدوت في الهواء خبطات
أبواب المركبات يقفلها العامل واحدا واحدا ، ثم أخذت الرؤوس
تطل من النوافذ لوداع المحطة إذ لم يكن هنالك من يودعونه ،
ثم أخذ باعة الرصيف يجرون عربات الصحف والفأكة والحلوى
واللبن إلى قاعة المحطة ، منصرفين إلى رصيف آخر بعد أن ودعوا
هذا القطار .

ثم انتهى الأمر بأن دوى الصفيير إذ نادى برحيل القطار ولعلت
المصاييح الحمراء في الظلام ، وأخذ القطار يتحرك خطوة خطوة .
ووقفت عند طرف العربة أطل من نافذة بابها ، وأتقرس
وجوه الواقفين على الرصيف وقد بدءوا ينصرفون من أماكنهم
جماعات وهم يتحدثون ، وقد نسوا القطار ورا كبيه وهو لم يترك بعد
حظيرة المحطة .

وبعض هؤلاء المسافرين لاسيما من النساء ، لا يريدون أن
يهجروا مكانا دون وقفة وداع ، ولا يهبطوا بلداً جديداً دون
استقبال ، فإذا أعوزتهم الظروف راحوا يتسلون بأفشاء السلام
على الواقفين على رصيف المحطة من عمال وبائعين ، يلوحون إليهم
بالأكف والمناديل كأنهم أحباب فرقت بينهم الأيام .

ولم يكن بين أولئك المسافرين أو الواقفين من كان
حقا في موقف وداع ، فلم تكن ميونخ كبرلين في الليلة الفائتة
وقد ازدحمت انهارا ليرتجف جمع وفير من المودعين ولم تخل ساعة الرحيل
من دموع حقيقية أو مصطنعة ، ولم يخل ذلك الموقف من مسافر
متحمس راح يلوح في الهواء حتى كلت ذراعه ، ولعله كان يودع
المدينة جميعها .

حى السفر

عندما تركنا برلين في مساء الأمس ، كانت في صحبتنا
سيدة ترافقها طفلتها ؛ سيدة من أولئك السيدات اللاتي لا يردن
إلا أن يفعلن شيئا ؟ بالكلام أو الاشارة أو الحركة أو الملاحظة ،
من اللاتي يبدو عليهن كأنهن ضغن بسر عظيم يردن أن
يفضين به لأول من يقابلهن .

وكان بصحبتنا كذلك شاب لعله كان مسافرا إلى جنوب
ألمانيا لقضاء الصيف بين أهله ، وكانت تودعه صديقتة البرلمانية .
فبدأت دقائق الرحيل الأخيرة حتى اقتربت السيدة من
النافذة حيث يتحدث الشاب إلى صديقتة لتكلم بعض من جاء
لوداعها ، ولتكرر كلمات شكر وألفاظ حسرة لهذا الفراق ، وكما

اقتربت ساعة الرحيل كلما زجت السيدة بنفسها في النافذة ، حتى
وجد الشاب نفسه بعد قليل خلف السيدة لا يكاد ينظر إلا من
وراء ظهرها .

وكان الشاب ككل فتى في سنه حيباً لا يجراً أن يوجه
نظر السيدة إلى حقه المغتصب ؛ لأنه عندما شعر بعجز حيلته
خلف الديوان وراح يتحدث إلى صديقه من باب العربة ، فما
كان من السيدة بعد أن نجحت في محاولتها ، إلا أن نادى على
فتاتها واشتركت معها في السلام والوداع .

وكنت تحس بان هذا الوداع تقليدي مصطنع ، فلا السيدة
حزينة حقاً على فراق هؤلاء الواقفين ، ولا المودعون صادقون
في وقوفهم هذا الموقف . وكانت السيدة تجاهد كثيراً في تمثيل هذا
الدور — دور الوداع ؛ فكانت ألفاظها منتقاة وعبارتها تمثيلية
بارعة ، لأنها لا تكاد ترى عيوننا متجهة نحوها حتى تمنع في هذا
التمثيل بحركات عصبية بهلوانية .

ثم جاء دور التقبيل ؛ فقبلت هذه تلك ، وتلك هذه ،
وهذه هذه وهكذا ، حتى إذا انتهت الجولة ولم يتحرك القطار ،
بدأن من جديد يوزعن القبلات بصوت أشد ارتفاعاً .

وفي تلك اللحظة كانت السيدة قد أخرجت منديلها الأبيض
لختام هذا الفصل . فما أن تحرك القطار واختلطت كلمات الوداع
باصوات القبلات وهذه بالزواج والتوصيات والنصائح مما يلقى في
مثل هذا المقام حتى امتدت الأذرع إلى النوافذ ترفرف
مناديلها البيضاء .

وكانت صديقتنا أكثر المرفرفين نشاطاً وحركة ، وكانت كلما
ابتعد القطار من حيث كنا وقوفاً ، كلما زادت امعاناً في تمثيل هذا
الدور الختامي وكانت عيونها تنظر إلى الواقفين على الرصيف وإلى
غيرهم من المودعين ، وكانت كلما مرت بمودع متحمس ازدادت
تحمساً ورفرفة بمنديلها . وفي تلك الأثناء كان أصحابها قد ولين
ظهورهن واختلطن بالزحام فلم نعد نميز رجلاً من امرأة ، ولكن
السيدة أصرت على المثابرة حتى اختفت أنوار المحطة . . !

ثم ان الفتى عاد إلى مكانه قبالي وبدأ كل واحد منا يتفحص
وجه رفيقه في السفر ويستنتج ما شاء له خياله وشاءت تجاربه .
وما ان مضت دقيقة على جلوسنا حتى بدأت السيدة تفعل شيئاً ،
فأخرجت « فوطة » وراحت تغتسل استعداداً للسفر أو محافظة

على تقليد معروف بين المسافرين ، وإن لم يكن يبدو عليها ما يدعو
إلى الاغتسال والنظافة .

وما كادت تستقر في مكانها حتى أنزلت حقيبتها وفتحتها
بين أبصار الجالسين ، وأخذت تنبش جوانبها لتخرج مجموعة من
الصور ، أخذت تتفرج عليها مع صغيرتها مبدية الملاحظات
المناسبة عن وجوه أصحابها وصاحباتها ، ولم تكن لترفض أن تشاركنا
في المشاهدة لو أن واحداً منا أبدى رغبة ما . ثم قفّت على هذه
الصور باخراج « منظر مقرب » راحت تجلوه بمنديلها وتجربه
بالنظر إلى أركان الديوان وإلى الكتابة المدونة على أطراف الاعلانات
المصوقة . وهكذا أخذت تستعرض هذه الهدايا والتحف الرخيصة
واحدة واحدة . حتى إذا انتهت أقفلت الحقيبة وفتحت كيساً من
الورق به صندوق من الحلوى وطبق من الورق به أنواع من الفاكهة
مما يباع في المحطات ، وراحت تجرب كل لون من هذه الألوان
بالاشتراك مع فتاتها وتتلوكة بلذة مصطنعة وتعقب على كل بلعة
بكلمات الاعجاب .

ثم انتهى هذا الفصل وبدأت السيدة باخراج مجموعة من
المجلات والقصص ، إذ أن التسلية بقراءة القصص تقليد قديم بين

المسافرين ليس لهذه السيدة أن تفوقها المحافظة عليه ، ولو كانت رحلتها
قصيرة لا يتطرق إلى المسافرين فيها السأم ، ولكنها وقد حافظت
على التقاليد السابقة من وداع المناديل ، والاعتسال ، واستعراض
الهدايا والصور ثم الأكل ، ليس لها إلا أن تمثل هذا الدور استكمالاً
لفصول هذه القصة

حديث التذاكر

وفي أثناء ذلك دخل قارض التذاكر وكان أول من استقبله
هذه السيدة بحركة تفتيش وسؤال عن تذاكرها فنبشت جيوبها
وحقائبها ثم أبرزتها وقد وجدت من هذا البحث مادة جديدة
للحديث شغلت بها الرجل حتى أجز مهمته .
فكان لزاماً عليها أن تسأله عن صحة هذه التذاكر وعن موعد
وصول القطار إلى محطة معينة ، ولم تكن إجابة الرجل داعية لقفول
باب المناقشة إذ انه اراحت تمتدح براعته في حفظ المواعيت ، وتقارن
بينه وبين بعض موظفي مكتب من مكاتب السياحة الشهيرة .
وكيف أنهم جاهلون الجهل كله بنظم القطارات ومواقيت السفر
وتدرجت من ذلك إلى توضيح مبلغ الخطر — في الاعتماد على هذه
المكاتب في تنظيم الاسفار . ولعلها شعرت بعد اللقاء هذه المحاضرة وما
تبعها من نصائح وملاحظات ان الصلة بينها وبين هذا الرجل

قد أصبحت وثيقة إذ أمها فتحت إحدى حقائبها وقدمت له سيجارة
عربونا لهذه المعرفة فقبلها شاكرًا ممتنًا ، ولعل ذلك شجعها على
التوكيد من صداقته ، لأنها أعقبت على السيجارة بأخرى . .

وما إن هدا المكان بعد خروج الرجل حتى تلفتت السيدة إلى
ما كانت تحمل من قصص ومجلات وراحت تقلب كل مجلة فلا
تكد تستقر عينها على صحيفة أو صورة حتى تنتقل إلى غيرها
وهكذا حتى تأتي على آخر الكتاب في دقيقتين . وكانت هذه
القراءة تمثيلية على نسق ما سبقها من الأدوار

وكأنما شعرت بعد ذلك بتعب واجهاد من هذا التقليل ولا
أقول القراءة ، إذ سرعان ما ألت بجميع هذه المجلات واتكأت
على المقعد محاولة الاستسلام إلى النوم ، ولكن هذا لم يدم كذلك
إلا دقائق معدودات ثم فتحت عينها وبدأت تجمع متاعها المنشور
وتعد عذتها للنزول . . .

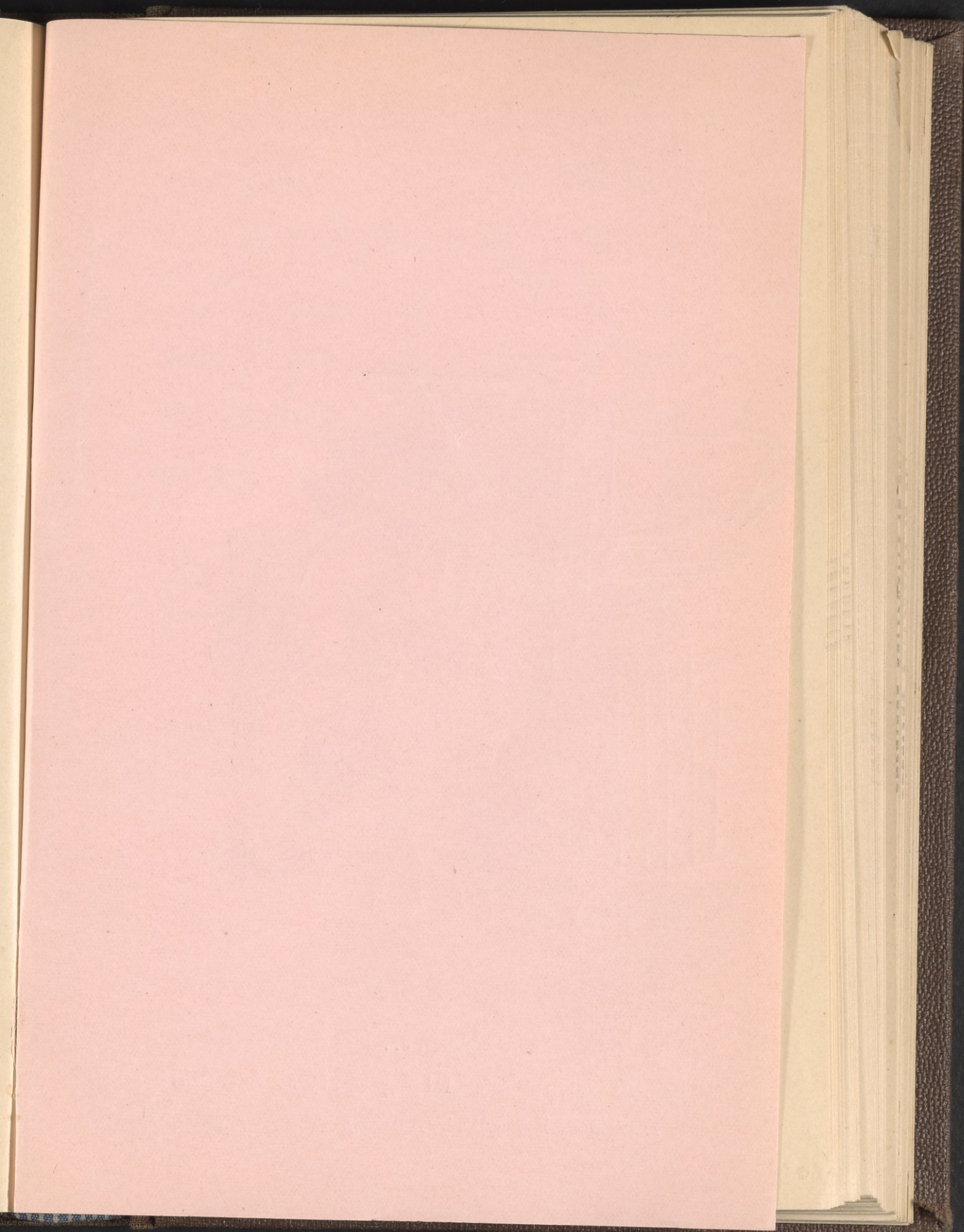
أجنبية

كان ذلك بالأمس في الطريق من برلين إلى ميونخ .
والآن وقد بدت أنوار ميونخ تتلشى في ظلام منتصف



...النسيان

وكانت مفاجأة عظيمة ! وكان على أن اخلع ملابس النوم واجمع شتات متاعى
المبعثر واقفل حقائبي واحمل كل هذا الى رصيف المحطة فى الدقيقة الباقية ...



الليل ، تركت النافذة ورجعت إلى حيث خلفت حقائبي في أحد
دواوين العربة .

وما أن وقفت على بابه حتى وجدت سيدة متمددة على أحد
المقعدين وفرشت المقعد الآخر ببعض الملابس حيث رقدت عليها
طفلة صغيرة استسلمت في نوم عميق . ولاشك أن دخولي كان
غير مرغوب فيه لأن نظرات السيدة لم تكن تدل إلا على الغل ،
ولكنها - جزاها الله - لم تدع لي مجالاً للاسترسال في التفكير لأنها
بادرتني باسمج سؤال تسمعه في مثل هذه الرحلات الليلية

— ألم تجد لك مكاناً آخر غير هذا ؟

وكان جوابي على استفسارها عملياً ، لأنني أسرعت وجلست
حيث تجلس ، بل ولم أحسب نفسي ضيفاً على هذه السيدة الرقيقة
المزاج ، بل عملت على أن أحتل نصف المقعد كاملاً ، فكان
ذلك كافياً لأشعل في جو الغرفة نار العداة الصامت ، وتعمدت
أن أكون البادىء بهذا العداة كلما سنحت لي الفرصة .

وفي هذه الاثناء مرت بباب غرفتنا المفتوح سيدة تحمل
حقيبة و باقة كبيرة من الأزهار تبحث عن مكان لها ، بيد أن

الحياء والذوق كانا يحولان بينها وبين دخول ديوان من هذه
الدواوين، ولعلها شاهدت في وجهي ترحيباً باشتراكها معنا (وإن
كان هذا الترحيب في الحقيقة ليس إلا مظهرًا لروح المناوأة) لأنها
تقدمت إلى الغرفة مستأذنة، وما أسرع أن ساعدتها بوضع حقيبتها
على أحد الأرفف. فبذلك قضيت على روح الملكية الفردية.

لم يكن لدى شك في أن صديقتي الأولى أجنبية، فقد
رأيتها على رصيف ميونخ تكثر السؤال والاستفهام وتلوك
الألمانية تلوها، أما عن جنسيتها فلم يكن حدسي صادقاً، أما
صديقتنا الخجول فلم يكن لتخفي شخصيتها النمسية...

ثم مرت ساعة ونحن جلوس لانكاد نتكلم إلا ألقاظاً
متقطعة غير منسجمة حتى أشرفنا على الحدود الألمانية، فجاء
رجال الحدود بملابسهم الخضراء يستوثقون مما يحمله هؤلاء
النازحون من النقود، بعد أن حرم القانون الألماني كل هذا،
ووضع أقصى العقوبات في سبيل من يحاول الاستهتار أو المغالطة.

أما أنا فكنت أوثق الجميع بمقدار ما أحمل من النقود
الألمانية، لأن ذلك لم يكن يعدو ماركا واحداً!

ولم يمر هذا الفحص سلام ، لأن صديقتنا النموية أبرزت
من النقود أكثر مما يسمح به هذا القانون الجائر ، وكانت بساطتها
في الحديث وتادبها في الخطاب وسماحة وجهها كافية لكي يرق
لها عامل الجرمك في تطبيق قانونه الصارم ، ولكن كل ذلك
لم ينفع ، فراحا يتحاوران ليبرر كل واحد منهما موقفه ، أما هي
فكانت توضح جهلها وبراءتها بما ليس فيه مجال لشك أوربية ،
وراح هو يفسر أصول هذا القانون ويلمح إلى مبلغ الخطر في
التساهل في تطبيقه .

وكان ما عرض من الحلول قاسيا بها أو مجحفا بمحقوقها إذ
ليس من المنطق في شيء أن تسافر هذه السيدة دون نقودها ،
ووراءها تذكرة لا بد من شرائها وأجور لا بد من دفعها حتى
تصل إلى أهلها . ولكنها مع ذلك كانت مستسلمة لظروفها القاسية
شأن النمسا نفسها ، بعد أن أهبط جناحها وأذل أنفها .

وعندما اقتربنا من الحدود وقفت السيدة على قدمها وعقدت
أزرار معطفها وهزت باقة الأزهار البرية التي كانت تحملها ،
ونظرت إليها بعطف حذرة أن تذوي ورودها قبل أن تصل إلى
بيتها ، وقد قطفتها في صباح ذلك اليوم صديقة لها هدية إلى أمها

ثم توالى رجال الحدود يستعرضون الجوازات ويراجعون
تذاكر السفر أو يستفسرون عما يحمل من متاع أو مال . وبعد
قليل خلفتنا السيدة النموية بعد أن شكرتنا على كرم الضيافة
وبعد أن دعونا لها برحلة موفقة . وبذلك رجعت إلى النضال
وجها إلى وجهه مع الصديقة القديمة .

أى مشكلة هذه الحدود ؟ فلا يكاد القطار يسير ساعة حتى
يقف ليودع بلدا وليستقبل آخر ، تودعه بعد أن تقف موقف
الفحص والاختبار الذى تحيط به الظنون والريب ، حتى إذا
خرجت بسلام من بين هؤلاء الذين كنت ضيفهم بالأمس ،
استقبلتك وجوه جديدة بعيون أشد حرصا !

ثم أى معضلة هذه الجوازات ؟ عليك أن ترعاها فى أعز
جيوبك ، وعليك أن توالىها بالأختام كلما عزمت رحىلا أو انتقلا
وإذا قست عليك الظروف الطارئة فأضعت هذا الدفتر ، وجدت
كل عين ترمقك بحذر وحيطة ، ووجدت قدمك قد تسمرت فى
مكانها وإذا بك لاتنتفت إلا باذن ولا تتحرك إلا تحت أعين
أعمتها الشكوك بشخصك .

الجواز الضائع

ومنذ عشر سنين كنت فى الطريق من لندن إلى باريس

لقضاء عطلة الشتاء ، حتى إذا ما اقتربنا من الميناء الإنجليزية
نيوهيفن مر بنا العامل الإنجليزي يوزع علينا بطاقات معينة لحفظها
مع جواز السفر ، وشاءت الأقدار إلا أن أقتس عن هذا الجواز
فلا أجده . فقد كان في جيب المعطف وكنت أحمل المعطف
مقلوبا . أما البحث في الحقائب فلم ينتج ، وأما السؤال والاستفسار
والاستقصاء بين عربات التطار فكان هباءً .

وصلنا نيوهيفن ظهراً وهرع كل مسافر الى الباخرة المنتظرة
ووقفت أنا كاليتيم أنظر الى هؤلاء الذين كأن أبواب الجنة قد
فتحت في وجوههم ، وتذكرت باريس وتذكرت ما فيها من
مراح ومنتعة ، ونظرت حولي في المحطة الخالية فكادت أبكي
غيظاً . . .

ثم أقلعت المركب وانصرف الشياولن والعمال الى بيوتهم
وأصبحت المحطة بأبنيتها السوداء القائمة قفراء مفرجة . وفي مطعم
المحطة جلست أتناول الغداء وحيداً أتسلى مع الخادم بالحديث
التافه أو لعلى كنت سلوته يومئذ .

ولعل الأمل الضائع يولد في بعض النفوس آمالاً مفتعلة ،

لأننى أجمعت أمرى على أن أنزح الى برايتون وأغرق نفسى فى لهوها ، وهى لا تبعد إلا بضع ساعة عن هذه الميناء الوحيدة . ولعل برايتون كانت تلك الليلة بهيجة وممتعة حقاً ، حتى خبت أمام عيني أنوار باريس ؛ وحتى أحسست بأن من السخف أن أترك هذا اللهو المحقق فى سبيل أمل قد يكون وهماً .

ولكن هذا الحلم لم يطل كذلك ، لأننى عرفت أن جوازى المفقود قد وجد فى لندن على رصيف ووترلو ، وأن هذا الجواز فى انتظارى ، ولكنى لم أحس بفرحة أو غبطة لهذا الحظ المفاجىء ؛ وفى منتصف تلك الليلة كنت فى وسط فوج جديد من المسافرين إلى باريس ..

على الحدود

ومنذ أعوام كنت فى الطريق من برلين إلى فينا ، وكان على أن أعد الجواز للسفر فى بلاد التشك ، ولأمر ما لم أجد فراغاً للقيام بهذه المهمة مع أهميتها وخطورتها ، بيد اننى لم أكن حريصاً على الوصول إلى فينا ، وسواء على أو كرهت على البقاء عند الحدود ما بين ألمانيا والتشك ، أم أكرهت على الرجوع إلى برلين فالمتعة لدى متساوية .

وعندما وقفنا عند الحدود بدأت اللغة السلافية تتطير في
الجو بعض الشيء ، وراح عمال الحدود يفحصون جوازات السفر
والأمتعة وقد حرم على المسافرين مغادرة القطار . فلما وصل
الركب إلى غرفتنا وكانت غاصة بعدد كبير من المسافرين قدمت
جوازي مقفلا بكل هدوء وورزانة ، وتركت العامل يبحث لكي يكشف
عن خاتم المرور بين عشرات الأختام التي كان الجواز يوم ذاك
غاصباها ، حتى كان من المحال أن يعثر على مثل هذه الاشارة ،
وما باله والاشارة مع تفاهتها غير موجودة !

ولعل الرجل شعر بمرج موقفه فقد قلب الجواز مرة وأخرى
تحت أعين الجالسين الفاحصة ، ولعله أحس بأن افتقاد هذه
الشارة ليس إلا عجزا منه لأن صاحب الجواز كان هادئا يقرأ .
ثم نظر إلى مستفسرا فاجمعت رأبي يومئذ أن أتجاهل اللغة الألمانية
وهي ما يمكن أن يتحادث بها إذا استثنينا لغته السلافية .

فهزرت رأسي متجاهلا ، وتداخل بعض الجالسين لتفسير
ما يريد الرجل إيضاحه ، فوقفت كالصخر الأعم أدير الرأس بينهم
مبتسما باصطناع ، فسألني الرجل أن أتبعه إلى مكتب المحطة وهناك
وقفت بين خليط من رجال الشرطة ورجال الحدود وعمال المحطة

وراح كل واحد منهم يفصح لى عن غرضه بانجليزية أقرب إلى
الألمانية ، وفرنسية أقرب إلى السلافية، أو يفسر لى بالاشارة والتشيل
حتى ضاقوا ببلاهتى ذرعا ، وبدا فى عين رئيسهم الضجر والغيط ،
عند ذلك لم أجد بدأ من الفهم !

وكم كان سرورهم عظيما عندما بدأت أتلوك ألفاظا من هنا
ومن هناك جعلتهم يثقون بقدرتى على الفهم ، لاسيما عند ما أخرجت
ورقة مالية لدفع الضريبة المقدرة ، فكان هذا الفصل التمثيلى
كافيا لانصراف أذهانهم عن مطالبتى بغرامة ، أو التشديد فى
حجزى حيث كنا حتى بيت فى أمرى .

وقد حدث ذلك مرة لصديق إيطالى متمصر ، وقد كنا
فى الطريق من تورين إلى باريس ، وعندما وقفنا على الحدود
الفرنسية تحت ثلاث الألب المنحدرة فوق رءوسنا طاف بنا رجال
الحدود ولسبب ما حامت الشكوك حول هذا الايطالى ، واستحال
الاستفسار إلى مجادلة ، واستحالت المجادلة إلى مناقشة حادة ، فأصر
الرجل على أن يغادر الايطالى القطار عند هذه المحطة ، وهكذا
كان ، فقد حمل حقيبتيه وهو يرغى ويزيد وبقى فى هذه المحطة
النائية القارصة ينتظر الأقدار . بيد أننا فى صباح الغد وجدناه
حيث تواعدنا فى باريس .

أهل الليل والوحدة وهذه الطفلة النائمة قد قرب ما بيني وبين
هذه السيدة ، لأننا بدأنا نتبادل بعض الملاحظات التي لم تكن
تخلو من أفاضل المجاملة .

وعندما وقفنا عند حدود النمسا وأخرجنا جوازات السفر
بدأت شخصية جارتى فى الوضوح وكان ذلك ممداعانى إلى التقرب
إليها لا رغبة فى صداقتها ولكن طمعا فى إثارة خبيثة نفسها ،
وإثارة ما أحمله نحوها من موجدة وضعينة منذ النظرة الأولى كما
تثار عواطف الحب سواء بسواء !

لم يكن عجيبا أن تحقق هذه السيدة على كل شىء ، لأنها
كانت تحس بأن لا وطن لها تدافع عنه وتفخر به ولو كذبا
ورياءً ، كما جرت بذلك التقاليد فى دنيا الوطنية .

كانت صديقتنا ايطالية المولد ، مصرية النشأة ، ألمانية
الجنسية . ايطالية بحكم أبويها وأجدادها ، مصرية بحكم مولدها
فى مصر ونشأتها فى مصر ، ثم لعلها لم تكثف بهذا الازدواج
فراحت تزوج ألمانياً لتصبح ألمانية فى يوم وليلة .

لهذا لم يكن عجيباً أن تشور ولو مرة على كل صفة من صفاتها

الثلاثة ؛ أما ثورانها على مصريتها فأمر بديهي هين ، فكانت
تذكر مصر كما يذكر الأمريكي المليونير منجما يملكه من مناجم
الذهب في صحراء المكسيك لا تربطه به إلا روابط الملكية ، ولا
يذكره إلا في صورته البشعة المفزعة التي يذكرنا بها نزلنا
الأصدقاء في أوروبا . أما لغة هذا البلد الذي ولدت ونشأت فيه
فهي كاللاتينية لا يذكرها ذا كرا إلا في معرض درس أو مذاكرة !
وكانت ثورتها على صفحتها الألمانية ، لونا آخر من ألوان
الجحود ، إذ كانت أيامها في موطن زوجها صورة من صور الشقاء
النفسي فكانت مريضة سقيمة كارهة متبرمة ، لقد أتحذضها
الهواء والنور والماء فكتم أنفاسها وذوى وجناتها وهدأ أكتافها ،
أما الطعام فكان غثا سقيا لا يأكله إلا من فقد أبسط مراتب
الذوق في اختيار غذائه ، أما الناس فليس فيهم من يصلح لأن
يكون رفيقا ودوداً ، كلهم جنباء مرءون كذابون أنانيون في
أبشع صور الأنانية !

لقد كانت تحس بين انسابها كأنها فريسة بين قطع من
الذئاب تحس بأنهم سخفاء حتى في محاولتهم العطف عليها ، عطف
كله رياء ومخاتلة ؛ لقد عقببت على القصة بالقصة ، والملاحظة

بالملاحظة ، لقد بدت سعيدة لتخرج من هذا السجن الألماني .
هكذا كان شعورها نحو الذين تحمل جنسيتهم وتلبس شعارهم .
أما ايطالياتها فكانت موضع نخرها تلك الليلة ، وكلما أدجت
في أطرافها ، كلما أدجت في مناوأتها ومحاولة استثارة مظاهر
ججودها ونكرانها ، حتى جعلتها تثور على ايطالياتها .

الاجانب في بلادهم

وضيوفنا الأجانب لا يذكرون مصر بالخير إلا إذا رحلوا إلى
أوطانهم دون أمل في رجعة إلى هذه الديار . وهؤلاء فقط
يذكرون هذه البلاد بالخير ، وينظرون إلى حياتهم على ضفاف
النيل كحلم سعيد سرعان ما نقضى ولو كان سنين مديدة .

وهؤلاء إذا صادفهم المصرى التائه في قعور بيوتهم ، يجد
منهم كل ترحاب ، أو لعل هذا التائه يستثير في نفوسهم ذكريات
جيبية قريبة إلى نفوسهم ، لا لسبب سوى أنها ككل ذكرى
لا أمل في رجوعها .

في ليلة من ليالى الشتاء هبطت « توركاى » مشى إنجلترا
الفاخر الذى يطلقون الرقيمير الإنجليزية . وكانت المدينة في تلك الليلة

خاصة مزدهمة بالوافدين عليها ، حتى أنني لم أجد بدا من أن أطرق
أبواب الفنادق بابا بابا دون تمييز بين درجات هذه الفنادق
وطبقاتها ، وأكثرها ارستقراطي فاحش في أمانه ، وتقدم الليل
وأنا بين بحث وتنقيب حتى انتهى بي المطاف إلى فندق توجه صاحبه
باسم هوليوود وزين به بعشرات من المصاييح القوية حتى غدا
كأنه في ليلة عرس .

في هذا الفندق قابلت مسترجونس ، وكانت مصريتي كفيلة
بأن تفتح لي صدر الرجل الذي حمل حقائبى وهو يتعثر بثقلها
وراح يتقدمنى إلى الطابق الثالث ، ويذكر لى أنه كان مديراً
لبعض الإدارات المصرية الحكومية ، ولم يثر مقدمى فى نفس
هذا الرجل الكريم روح الحسرة أو الأسى لعده الذهبى الراحل
فى مصر ، بل كان على العكس من ذلك نخوراً بماضيه راضياً
بماضره ، مزهوا بضيافتى ، أكرم وفادتنى وأحسن قبولى .

وفى ليلة قريبة من ليالى الصيف كنت فى روما . وكان على
أن أنتظر القطار السريع إلى باريس وهو لا يبرح العاصمة الإيطالية
إلا فى منتصف الليل . وكان على أن أجد ما أقتل به هذا الوقت

الطويل بعد أن أرتجت أبواب المتاجر وخوت الشوارع من روادها ، فتخيرت داراً رقيقة من دور السينما على كئيب من المحطة لأقضى فيها ساعتين طويلتين وأريح قدمي المتعبة وأتبلغ ببعض ما اشتريت من زاد وفا كبة في ظلمة المكان .

وإلى جانبي جلس رجل أصلع متقدم في السن رقيق الحال سرعان ما تقدمت عيناه ملامحي ، فراح يتحين الفرصة للكلام وسرعان ما انتهزها فبادرني الحديث بالإنجليزية دليل على أنه واثق من أنني أجنبي ، وانتهى الكلام إلى ذكر موطني . فما أن سمع الشيخ الجواب حتى ترك حوادث الرواية وتوجه إلى يستزيدني حديثاً وكلاماً عن مصر ، التي تركها منذ ربع قرن وهو في حنين متزايد وشوق أكيد إلى الرجوع إلى أحضانها وقد كان بيننا مهندسا ميسوراً ، أما عن حاضره فلم أسأله لأن ملابسه ولأن رنة الحسرة في حديثه كانت كافية لتدل على أن مهندس الأمس ليس رجل اليوم

وفي ووستر كنت مرة ضيفاً للشاي في حفل مدرسي ، وكان الزائرون منتشرين في حديثها طوائف طوائف يتعارفون ويتسامرون

جريا على العادة الانجليزية في محافل الشاي ، و بينا أنا بين هذه
الحلقات طلب منى صديق أن أقدم نفسى إلى سيدة حريصة على
هذه المعرفة ، وكانت السيدة من أولئك العجائز اللاتي كن فى
مصر منذ ثلاثين عاما ، اللاتي مازلن يتحدثن عن هذا العهد
القديم بلهجة الواثق المتأكد ، كأنهن يتكلمن عن موسم الشتاء
الأخير فى مصر .

ولعل إجابتي عن حال مصر الراهنة ووصف مظاهرها ووضعها
وتمدنها ومسابقتها الغرب ، استغز السيدة أو لعله جعل معرفتها عن
هذه البلاد تبدو أقرب الى الخرافة ، لأنها راحت بحماسة تصف
لنا مصر التي عرفتها باوحالها وحراراتها وأقذارها . .

وكأنما أرادت أن تؤكد للسامعين مدى هذه المعرفة فلم
تدع مجالا للمناقشة أو التفاهم ، وكما أردت اقناعها بأن مصر
الأمس غير مصر اليوم ، وأن هذه الصور التي تعرضها لم يعد لها
مجال فى حياتنا الراهنة ، لم يرحزها ذلك من اعتقادها عن
أساليب الحياة التي عرفتها منذ ثلاث قرن أو يزيد

وكيف لنا أن نغير هذا التراث وهو ميزة من الميزات
وأمجوبة من الأعاجيب التي تحاك حوله القصص والحكايات ؟
وصادفت مرة على مركب يوناني صلبا من هذا الشعب
النزير يذهب إلى بلاده لأول مرة ومثله في ذلك المئات ، قلت
له ألسنت الآن مصريا إذ ولدت وعشت في مصر ولم تر بعد بلدا
سوى هذا البلد ؟ أما عن هذا المنطق فلم يقره وأما عن يونانيته
فهو نخور بها وأما عن الفرق ما بين البلدين فذلك أن اليونان
خالية — كما يسمع من أهله — من لابسى الجلاليب ، إذ جميعهم
من أصحاب البذلات والسراويل وهذا في ظنه فرق واسع بين
حياة شعب وحياة آخر .

وقد تقودك الصدفة لأن تقابل شخصية ظريفة من هذه
الشخصيات . وأذكر مرة ان كنت أتناول العشاء في مطعم
الكورنر هاوس المعروف في لندن بصحبة الصديق الظريف
الأستاذ غ... ولعل أنوار المكان الزاهية وموسيقاه البديعة ووجوه
الجالسين والجالسات الفاتنة جمعتنا في نشوة مرح وسرور !
وجلس إلى جانبنا جماعة من الإنجليز يتناولون العشاء في مثل

هذه النشوة التي جعلتهم يتحللون من قيود التحفظ ويتبادلون معنا
الملاحظة الظريفة دون معرفة سابقة ، وكان من بينهم شاب كان
يوما ما جنديا في مصر فأصابته نشوة مرح شديدة عندما عرف
بحقيقتنا فراح يسلم علينا بشوق وغبطة لاشك فيها ،

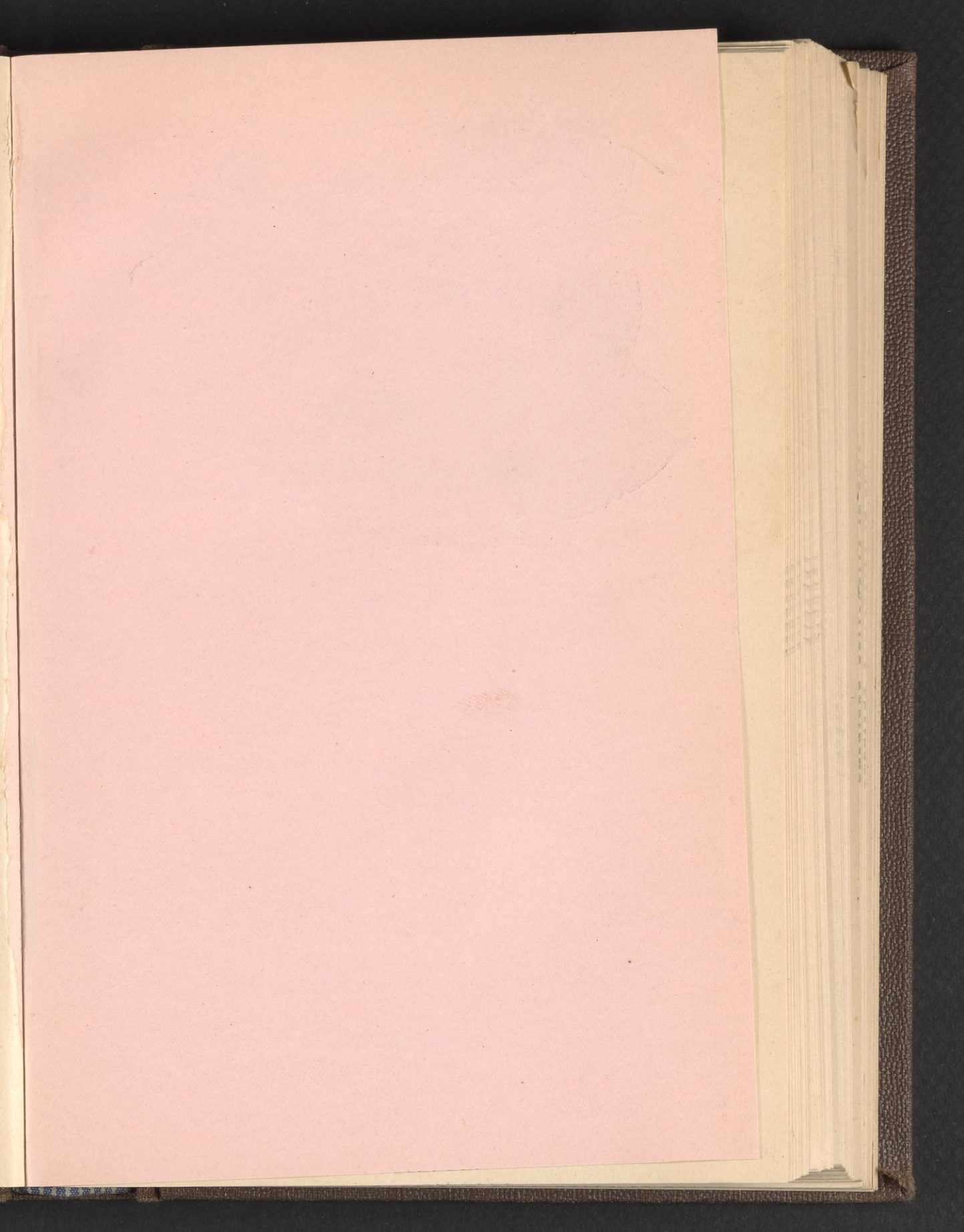
ولم يرد تأكيذاً لهذه المعرفة إلا أن يتكلم معنا باللغة العربية
ولكن ذاكرته خائفة إذ لم يتصيد من مفرداتها المندثرة إلا كلمة
« قوى » وراح يردف كل جملة انجليزية ينطق بها او عبارة عربية
نتحدث بها بهذه الكلمة . فلما سألته عما إذا كان لديه شيء
من الكبريت (وذكرته بهذا اللفظ بالأشارة إلى علبة الثقاب
الفارغة) ، ما كان منه إلا أن وثب على قدميه وقدم لى علبته
مؤكداً على بقبولها بقوله « كبريت قوى »

ومازلت إلى اليوم كلما أقابل صديقي الأستاذ غ... ويعرض
علينا ما يذكرنا بالثقاب أن نذكر « كبريت قوى » ونذكر
تلك الشخصية المرححة . .

ومنذ عشر سنين عندما هبطت لندن للمرة الأولى ، كان
مما ذكرت بأخذ الحيطه منهم طائفة الحلاقين ؛ وكان حلاقى
الانجليزى الأول فى حى « المتحف البريطانى » وحدث أن كان



لـيـكـل مـسـافـر اسـلـوب خـاص فـي النـوم ..



هذا الخلاق ممن عملوا يوماً في فنادق القاهرة الكبيرة ، وكان لهذا السبب حريصاً على رعايتي في القيام بمهمته ولهذا السبب استسلمت إليه ، فلما انتهى من ذلك طلب مني ثلاثة وعشرين قرشاً ، فصعقت من هذا التقدير إذ لم أحس بأن ما فعله بشعري يستحق مثل هذا المبلغ ، فتأكدت بأنه قد استغل هذه المعرفة في مصلحته فخرجت دون أن أتفحه شيئاً مما جرت العادة به ، مع شدة ما حبانى به من الاحترام والعناية عند وداعى ، ظاناً أن هذا الاحترام ما هو إلا فصل من الدور الذى يمثله ، ولكننى لم أعرف إلا متأخراً أن الرجل كان صادقاً في تقديره ، وان خطأى كان في تخيير هذا الخانوت الفاحش ! والان نعود إلى حكاية القطار . . .

ليالى القطار

لكل مسافر أسلوب خاص فى النوم .

فبعض المسافرين ينامون مباشرة إذا ما تحرك القطار ، فلا يكادون يسندون ظهورهم إلى المقعد حتى تغفى عيونهم . وهؤلاء لا يزعجهم خاطر ولا ضجيج ولا حركة ، بل لعل ذلك كله يعمل على استسلامهم فى النوم العميق الهنىء . وإذا حدث ما أيقظ

الواحد منهم لا تراه يفتح عينه إلا بمقدار ، فاذا انتهى أسبل
جفنيه ونام هادئاً من جديد !

وترى الواحد من هؤلاء المسافرين لا يتورع من أن يتكىء
على جاره وأن يثبت عنقه على كتفه كالطفل الصغير بجانب أبيه .
وقد يحدث أن يكون الجار من الصنف الذي يقطع ساعات السفر
في القراءة والمطالعة ، والذي لا يكتشف إلا أخيراً هذا الرأس
المحطوط على كتفه ، وقد يتقل عليه أن يزعج جاره فتراه يحمل
هذا الثقل ساعة وهو كاره ، حتى يأتي من ينقذه بايقاظ جاره
النوام .

وبعض المسافرين يتحايلون على النوم تحايلاً ، فيجهدون
عيونهم في القراءة ، والقراءة الليلية في القطارات مضية منهكة ،
وقد يعمدون إلى إطفاء الأنوار وقد يحملون معهم وسادة أو غطاء
صوفياً ثم يغمضون جفونهم ، ولكن رؤوسهم تبقى عاملة مفكرة
حتى يصبح النوم مجهداً مملاً ، فيقومون فزعين إلى خارج الغرفة
يسيرون في طرقة العربة جيئة ورواحا وهم يدخنون السيجارة
بعد السيجارة .

ولبعض المسافرين عاداتهم الخاصة عند النوم .

فمنهم من لا ينام إلا إذا لف رأسه بشال من الصوف ، وإذا أعوزه ذلك خلع ستريته وغطى رأسه بها . ومنهم من لا ينام إلا إذا خلع حذاءه ولبس شبشباً يحمله عادة لهذا الغرض .

وفي ليلة من الليالي كنت مسافراً في القطار الأخير من برلين إلى ليبزج وكان معي رفيق ألماني من هذه الطائفة التي تعنى بحمل الشباشب الأنيقة في السفر ، فما أن سار القطار ساعة وأطفأنا الأنوار حتى أتم الرجل هذه المهمة فاحسست براحة من ذلك ؛ فعمدت إلى تقليده فخلعت حذائي ومددت قدمي إلى المقعد الآخر حيث ينام . وكنت ألبس في ذلك اليوم جورباً جديداً ، ولعل كثرة تجوالي في ذلك اليوم الصائف قد جعل رائحة ذلك الجورب غير مرغوب فيها دون أن أعرف ذلك ، لأن صاحبي لم يتورع من أن يهب من مرقده وينبني إلى حمايته من هذا الجورب . فلم أجد بداً من أن أعود إلى لبس حذائي مرة أخرى ...

وبعض المسافرين لا يغمض لهم جفن إلا إذا نام الواحد منهم منكفئاً على وجهه ، ولهم في ذلك أسلوب خاص فهم يرتبون حقائقهم

واحدة فوق الأخرى ما بين المتعدين المتقابلين ويضعون رؤوسهم
بين أذرعهم ويستسلمون الى النوم . وقد ينفرد بعض هؤلاء بوضع
أذقانهم في اكفهم كمن يفكر تفكيراً عميقاً ، وانك لترى على
وجوههم مسحة من الجفوة والشدة التي قد يدارونها في يتظهم
ولكن عيونهم المقللة لا تدع لهم مجالاً لمثل هذا الرياء

وقد يستولى القلق على المسافر فيغير من جلسته في كل دقيقة
حتى تحس بأنه يجاهد أمراً عسيراً مستعصياً . فقد يحاول النوم
مغطياً رأسه بمعطفه مدسوساً في ركن المقعد ، ولكن هذا
الوضع سرعان ما يغيره فيضع المعطف على ركبته ويكتفي بوضع
منديل على وجهه ويعقد ذراعيه على صدره كمن يصلي . ثم
تشعر بعد قليل بان هذا الوضع لم يرح صاحبه الذي ينزع المنديل
ويضع المعطف خلف ظهره ثم يدس يديه في جيوبه واضعاً ساقه
على الأخرى ، ويحاول النوم هكذا ، وهو أقرب في وضعه من
الجالسين في مقهى يستمعون للموسيقى !

بيد أن بعض المسافرين لا يغمض للواحد جفن مالم يسند جنبه
إلى المقعد ، أما النوم وهو جالس في أى وضع من الأوضاع فيزيد

من محنته ويساعد على أرقه . ولما كان من العسير في الكثير
من الأحيان أن يجد المسافر في هذه الرحلات الليلية مقعدا خاليا
بأ كمله ليتمدد عليه في الوضع الذي يناسبه ، كان تحقيق هذه
الأمنية عسيراً

وقد يكتفي الواحد من هذه الطائفة بأن يتكر من أوضاع
النوم ما يجمع ما بين الجلوس والاضطجاع ، فيجمع المسافر ركبتيه
إلى صدره ويدس رأسه إلى ركبتيه ويطوق ساقيه بذراعه وينام
هكذا متكورا ، غير أنه لما كان يعتمد في أسلوبه هذا على
عضلات ذراعيه التي تجمع ما بين رأسه وصدره وساقيه لهذا كان
هذا النائم في خطر دائم من الجالسين إلى جانبه ، وذلك إذا حدث
ولكزه أحدهم بذراعه دون قصد ، تفككت وحدته وتبعثر
ماضم من أطرافه !

مفاجئات الليل

وكان نصيبي من النوم في تلك الليلة موفورا ، بعد أن
احتلت نصف المقعد وأعدته اعدادا مناسبة لليلة طويلة لاسيما
بعد أن بدأت ساعات اليوم الجديد ، إذ من غير الجائز أن يفد علينا
وافد في المهزيع الأخير .

وفتحت حقيقتي الصغيرة لأودع ربطة العنق وياقة
القميص ما بين كتائين حتى تحتفظ بشكها في الصباح . وفيما
أنا أرتب ذلك في الحقيبة عثر أصبعي بشيء لازق في قاعها ،
فما رفعت زجاجات الدواء حتى أبصرت معجون الأسنان وقد
انسكب من فعل الضغط وتلوث به جميع ما كان في الحقيبة من
أوراق وكتب وأدوات ومناديل وأقلام .

وانسكاب أنابيب الخلاقة والأسنان أو زجاجات الخبر أو
اليود من أسمح ما يمني به مسافر ، ومن أخطر ما يمني به الحقائب
والملابس والأوراق ؛ فإذا اكتشفت الفاجعة في وقت مناسب
فقد ينجو بعض هذا المتاع من فعلها ، أما إذا تركت هذه
الزجاجات المفتوحة أو الأنابيب المضغوطة حتى الصباح ، عند ذلك
تعرف معنى الفاجعة وأنت تنظر إلى وجه المسافر الذي يفتح
حقيبتة إعدادا للاغتسال والنعظافة ليجد أدوات النعظافة
والاغتسال نفسها في حاجة إلى الرعاية !

وبعد أن استنفدت ما كان معي من صحف في تنظيف
هذه المادة الصمغية اللزجة ، لففت رأسي بشال صغير من الصوف

واتكأت إلى ركن المقعد وتمددت بنصفي السفلى، فكنت نائماً جالساً !
وأذكر أنني استيقظت مرات عدة في تلك الليلة ، كما وقف
القطار أو فتح باب الغرفة أو أضيبيء نورها وانكسرت كنت أحس
بالضوء بجفوني المقلبة ، وعندما بدأ بصيص الفجر ينفذ من خلال
النافذة أزحت الشال من وجهي قليلاً وتلفت لأجد إلى جانبي
ضيفاً يستغرق في النوم ، لست أدري متى هبط علينا وكيف
جلس إلى جانبي ، بعد أن أزاح أقدامي إلى الأرض دون أن أحس
بمقدمه أو أشعر بوجوده .

وهذه المفاجئات مما تتميز بها قطارات الليل ، لأن ضيوف
الليل طبقة خاصة من المسافرين . وقد حدث أن كنت وصديقي
الأديب .. نسافر في القطار الليلي من بروكسل إلى كولون ،
وفي الساعة الواحدة دخل علينا مسافر لم يرد إلا أن يقلق
مضجعنا وكان يحمل حقيبة مربعة وضعها تحت مقعدى
وما أن أطفأنا الأنوار وحاولنا معاودة النوم حتى سمعت وصوصة
من تحت المقعد استحال إلى هدير ، وذلك أن صديقنا كان
يحمل في حقيبته المربعة أزواجاً من الحمام ! الشيء الذي يستحيل
حدوثه في غير هذه القطارات الليلية . . !

كان إسفار الفجر فتانا ، وكان الصبح الأول بديعا ، وأنت
ترقب العالم الفسيح بجباله المتوجة بالثلج ، وبجيراتة الساكنة ،
وغاباته الداكنة ، وقراه الحمراء النائمة ؛ ترقب هذه الدنيا من
كوة سحرية تفتحها بأصبعك في زجاج نافذة القطار وقد غطاه
الندى والدخان بطبقة كثيفة حاجبة لاستراق النظر .

ليس شيئا أبهج من استقبال الفجر في هذه البراري الفتانة
براري التيرول ، ولعل للفجر جماله في كل مكان ، ولكن المسافر
كالعاشق أشد الناس غبطة باستقبال النور إذ أن ليل المسافر كليل
المحب يسهره حتى يجهد السهر .

وتتلفت حولك في الغرفة ، فتحس بشيء من الحسرة
والانقباض ، كأن في هذا المكان عرس حفل به الليل ثم
انقض ، تلمح المصباح الكهربائي الذي ترك إلى هذه الساعة
وهو لا يضيء إلا نفسه كأنه شمعة في معبد ؛ وترى المقاعد
والحقائب وقد علمها غبرة السفر فبدت قدرة كأن يدا إنسانية لم
تلمسها منذ سنين وتعجب كيف كانت هذه المقاعد الجلدية متألفة
في الليل !

ويعمد بعض المسافرين إلى الافطار بشهية مفتوحة ، ولكن
هذا المسافر قليل نادر ، لأن السهر بطبيعته يشجع على الأكل
والأكل يشجع على التدخين ، فاذا أصبح المسافر وقد لمسه برد
الليل في طرف من أطرافه لم يعد يحس بحاجة إلى طعام أو شراب
أو تدخين ، وقد يبس حلقة ومررَ فمه ، وانسدت مسالك أنفه
بالتراب ! وقد يجدى في هذا المجال القليل من القهوة ، أو قد تستحب
تفاحة لقتل هذا الشعور :

وتبدو وجوه المسافرين في الصباح الباكر كالحلحة ليس لها
لون معين ، وكأن ذقون الرجال قد ترعرت كشيعة في ساعات
الليل فأصبحت وجوه أصحابها مقبضة كريهة ، وقد تكورت
العيون واحمرت من السهر وتجمعت شعيرات الجفون وتصمغت .
وليست وجوه المسافرين في هذا التشويه أقل نصيبا ، لأن
أصباغ الليل تصبح وقد امتزجت بالعرق والتراب تحت فعل
العوامل الليلية وسبيلة من وسائل التقييح ، وقد اغبرت
جدائل الشعر وأضحت منكوشة منفوشة ، وتكسرت ثنيات
الملابس وتهادت الجوارب الحريرية المحبوكة وسقطت على الخذاء
القذر حتى تغدو المرأة أكثر نقباضا وأشد فعلا على النفس من الرجل !

أقبلت الساعة الحادية عشر ،

وأقبل المسافرون يعدون حقائبهم ، ويعدون أنفسهم
لمغادرة القطار بعد رحلة طويلة وليلة مجهدة .

وليس من اليسير أن تعد نفسك اعداداً محترماً بعد سفرة
طويلة وليلة مجهدة ؛ فمهما حاولت العناية أثناء نومك برعايتك
ملابسك حتى ولو دعاك ذلك إلى إقلاق راحتك في الجلوس أو
النوم فالنتيجة واحدة لا مفر منها ! فالمعطف لا بد وأن تتثنى أكمامه ،
وتتلاشى ثنية السروال وتحل مكانها انبعاجة قبيحة عند الركبتين !

وهذا الطابع قلما يخطيء حقيقته أحد . وترى المسافر يعمل
كثيراً لكي يتحلل من قيده هذا إذا هبط مدينة من المدن ولكن
محاولته لاشك فاشلة ، إذ أن هذه الثنيات التي تحملها ملابسه تجعل
له لونا مميذا وجواً خاصاً يعرفه به خدام المقاهي جد المعرفة !

وليست الملابس التي يُعنى أصحابها بحفظها في الحقائب أبعد
من الاحتفاظ بهذا الطابع الذي تتميز به ملابس المسافرين ، لأن
هذه الملابس المطبقة في الحقائب تحمل أيضاً طابعها المميز فهي
بثنياتها المنظمة المتقاطعة رأساً وعموداً ، تختلف عن مشيلاتها التي

لا يصيبها مثل هذا الحظ من العناية ، وإن كان الجو الذي تقيضه على
أصحابها سواء في الحالين !

وتنسيق الملابس في الحقيبة فن من الفنون ، لا يعرف سره
إلا قليل من رواد الأسفار ، فهؤلاء وحدهم يعرفون جغرافية
الحقيبة ، ويعرفون التقاليد في صف محتوياتها المتباينة المتنافرة ،
يعرفون كيف يحتفظ المسافر بربطات العنق وبالمناديل سليمة
من عمل الحذاء أو الشبشب الذي قد يجاورها ، وأنهم
ليعرفون كذلك كيف يضعون الأزرار وما شابهها بحيث
يكتشفونها إذا أرسلوا أصابعهم في الظلام !

وأنا من الذين يجيدون هذا الفن ويعرفون دقائقه وأسراره ،
فن تنسيق الحقائب وإعدادها على وجه السرعة . فقد أسهر
الليل إلى هزيعه الأخير ، في ليلة سفر طويل دون حاجة إلى أن
أقتل اليوم واللييلة في جمع ما أنا في حاجة إليه ، أو في ترتيب الحقائب
التي أحملها . إذ أن ذلك لا يعوز مني إلا دقائق قليلة ،

وهذا الفن يخلقه المران وكثرة التجارب في السفر . لأن المسافر

قد يهبط مدينة ليقضى ليلة واحدة فيها فإذا لم يكن متمكنا من
هذا الفن فمن المؤكد أن يكون في خطر داهم من فوات القطارات
وضياع الوقت

ولكن هذه الثقة بالنفس لها أخطارها ولا شك ، فالنسيان
خطر مفرع لكل مسافر عجل كثير التنقل والتجوال ، وأنا من
الذين يعيشون في وجهه هذا الخطر الداهم ، مها حاولت وهما
جاهدت في دفعه

حكايات النسيان

أذكر مرة أن كنا في رحلة سريعة في بلجيكا تنقلنا أثناءها
بين مدنها ومصايفها حتى انتهى بنا المطاف إلى مدينة بروج
التاريخية ، وكان موعد القطار إلى بروكسل الساعة الثالثة. وكنا تناول
الغداء في مطعم شبيه بمطعم البندقية به موسيقى عازفة وتكر
به وجوه الأجانب من النجائز وأمريكيين فشحجنا ذلك على
التسويق والمماطلة ، وعندما حملنا حقائبنا إلى المحطة في عربة
من عربات الخيل العتيقة ووصلنا إلى حيث القطار ونحن نتصبب
عرقا من صيف ذلك اليوم ، اكتشفت أن آلة التصوير بحقيبتها
مفقودة ، ولما لم تبق إلا دقائق خمس على مغادرة القطار كدت
أفقد كل أمل في البحث عنها ، ومما زادني إهمالا أن كان

رفيق في حالة نفسية ثائرة فجلس في مقعده دون أن يبدي أكثرنا
أو عطفًا أو عناية بأمر هذه المصيبة الطارئة

ولعل هذه النكاية قد دفعتني إلى الحماس والمخاطرة حتى
بموات هذا القطار على أن استأنف سفري في قطار الليل . ولكن
شاء الحظ الباسم — وما أندر ذلك — أن أجد هذه الحقيبة في
العربة وقد وقف صاحبها دون أن يعرف سرها إلى جانب المحطة..!

لم تبق إلا نصف ساعة على الوصول إلى تريستا . وكان
على أن أعد نفسي لرحلة البحر واستقبال من قد أجدهم من
أصدقاء على الباخرة . وفي مثل هذه الساعة يكون من العسير
أن يجد المسافر فرصة لإعداد نفسه ، لاسيما وأن الرفقاء من
المسافرات يعملن على احتلال المغسل ولا يجزعن من صف
الواقفين المنتظرين . ولهذا السبب يستيقظ بعض المسافرين
في الساعة المبكرة والناس نيام للاختلاء بنفسه وإعداد ملبسه
وحقائبه على مهل .

كان بديها أن أجد المغسل في هذه الساعة المتأخرة
خاليا من كل شيء ؛ فالصنابير لا يسيل ماؤها إلا قطرات ، وصندوق

المناشف قد استحال إلى كومة مبللة . وزجاجة الصابون السائل
قد فرغت . وكان ما يعينني أن أعدتسى للحلاقة ، فما أغلقت
الباب حتى اكتشفت أنني قد نسيت أنبوبة الصابون ، ولما كان
من الصعب أن أراجع ثانية والمنتظرون على الباب ، عزمت على الحلاقة
بغير صابون ، حتى إذا ظننت أنني قد انتهيت ونظرت إلى المرآة
دهشت لوجود منابت الشعر سوداء كما هي ، وعندما فحست آلة
الحلاقة ، ما كان أشد عجبى عندما وجدتها خالية من الشفرة ...!

الحذاء المفقود

وليس أكثر عندي من حوادث النسيان المفاجئة . فمذ
سنتين كنت في المطار من لوزان إلى البندقية وكنت أعرف أن
ذلك المطار يسير مباشرة إلى هذه المدينة دون حاجة إلى تبديل .
ففي الساعة السابعة صباحا وصلنا ميلانو . وكنت إذ
ذاك نائما ولم أرد اليقظة لولا شدة الجلبة والضجيج والصفير في
بهوه هذه المحطة العظيمة ، وكانت إلى جانبي سيدة
إيطالية رافقتني في هذه الرحلة من لوزان ، وكنت ألاحظ أنها
تحاول توجيه نظري بالإيطالية التي لم تكن تعرف غيرها .
إلى حقيقة معينة ولما لم أبدأ أكثرنا استحال تلميحتها إلى تصريح

وكلام بالإشارة ، وفي الدقيقة الأخيرة هبطت على فكرة وكأنها
الوحي وهى أن هذا القطار ذاهب إلى غير البندقية ! وكانت
مفاجأة عظيمة وكان على أن أخلع ملابس النوم وأجمع شتات
متاعى المبعثر وأقفل حقائبى وأن أحمل كل هذا إلى رصيف المحطة
فى هذه الدقيقة الباقية ، وكان ذلك . ولكننى لم أكد أحتل
مقعدى فى قطار البندقية حتى اكتشفت أنى قد نسيت أكثر
من شىء واحد ؛ لقد نسيت الحذاء كما نسيت شالا من الصوف
وأكثر ما ساءنى ، أنى نسيت أيضا صندوقا ممتازا من الشوكلادة
كنت اشتريته فى الليلة السابقة من لوزان تذكارا لأيامى
فى سويسرا .

وليس حوادث نسيان المتاع بالشىء الخطير إذا ما قيست
بحوادث نسيان النقود . وأى خطر أعظم من أن تكتشف وأنت
على سفر طويل أنك خالى الوفاض بادى الانقراض ؟ ، ولعل يومى
الأول فى أوربا — وذلك منذ عشر سنين — يتميز بحادث
طريف من هذه الحوادث المفجعة التى يجرها النسيان .

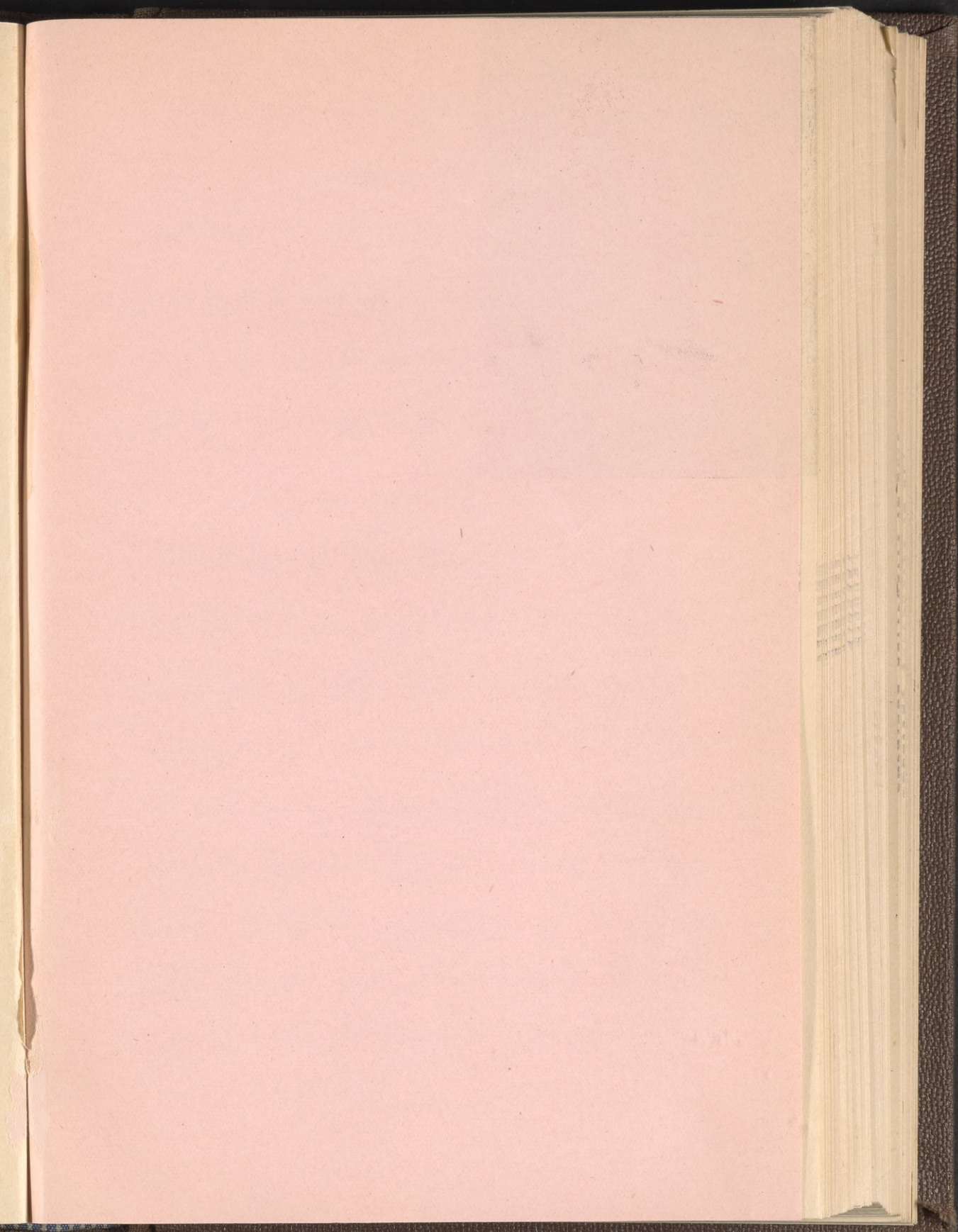
هبطنا مرسيليا مع جمع من الأصدقاء المصريين ونحن فى
طريقنا إلى إنجلترا للدراسة حينذاك ، فقضينا اليوم فى مرح ووفرح

ونحن نجوس خلال المدينة وتنقل بين مقاهيها ومطاعمها ومتاجرها ،
حتى إذا كان المساء حملنا حقائبنا واحتلنا غرفة كاملة في القطار
إلى باريس ، وأعدنا أنفسنا للطعام والنوم وكان موعد القطار
السابعة وجاء هذا الموعد والقطار في مكانه ، فخرج بعضنا
ليستطلع جلية الأمر وما كان أشد دهشه حين علم أن القطار
قد سافر فعلا ، وترك العربة التي كنا فيها ؟ وما هذا بغريب
في فرنسا . . .

فحملنا حقائبنا من جديد إلى رصيف المحطة في انتظار القطار
الذي يليه ، وفي تلك الساعة طرأ على ما جعلني أبحث عن شيء
في جيوبى وما أعظم مفاجأتى عندما وجدت أن حافظة نقودى
وأوراقى في غير مكانها ، فأعدت التفتيش والبحث في جيوب
السترة والمعطف والحقائب دون جدوى - حينذاك تحققت أن
المأساة لا شك فيها فاستحال الفرع إلى نوبة عصبية ، لاسيما أن
ذلك اليوم كان أول ما عرفت من الحياة الأوربية ، فرحت
كالجنون أثب هنا وهناك باحثاً دون غاية أو قصد بين أركان
المحطة الكبيرة ، حتى إذا ما أحسست باليأس جلست على بعض



يوم في أوربا



صناديق البضاعة المخزونة في ركن مظلم من المحطة ، وما أعظم دهشتي عند ما تلفت لأجد على أحد الصناديق المجاورة حافظتي ملقاة ومفتوحة ، وبها بضع عشرات من الجنيهات دون أن يفطن إليها أحد . فقد نسيت أنني قد أخرجتها منذ ساعة لأكتب عليها ورقة لعامل من عمال شركة السياحة وتركتها في نوبة من السرعة ، فبقيت في مكانها هذا ساعة دون أن يفطن لوجودها أحد .

وفي هذا الصيف وبعد عشر سنين تتكرر المأساة وفي هذا القطار نفسه من مرسيليا وأنا في الطريق إلى براين . كان برفقتي الصديق العزيز السيد ع وما هبطنا مرسيليا حتى أصر على البقاء فيها ليلة ليستعيد ذكريات قديمة له في هذه المدينة ، أما أنا فكان كرهى للبقاء في مرسيليا أو غيرها من البلاد الفرنسية أمرا لا شك فيه . فكان أن نجحت في إقناعه ولاكننا لم نكد نترك مرسيليا ، حتى عاد إلى احتجاجه وأصر على البقاء يوما في أية مدينة فرنسية في طريقه قبل أن نصل إلى ألمانيا . فلما أصبحنا اتفقنا على أن نقترب ، على أن يتخلف في استراسبورج

وأن أتخلف في هايدلبرج الألمانية ، وعلى أن يلحق بي في هذه
المدينة في المساء .

ولم أكد أضل الحدود الألمانية حتى تنفست الصعداء
وكان أكبرهمي أن أتناول طعام الفطور الألماني المعروف في
عربة الطعام ، لاسيما أنني قضيت ليلة كاملة دون أن أتذوق
شيئاً ، وقد كان من جراء محاولة الأمس مع السيد ع . . . أن
أصررت على ألا أشاركه حتى في طعامه الفرنسي ..

وكان الصباح بهيجاً على ضفاف الراين وقد شاركتني في
غرفتي عائلة ألمانية من الفتيان والفتيات الوسيات ، وكنت
مزهوا فرحا بعد رحلة طويلة مضمّنية ، فأخرجت بعض ما أحمل
من الكتب الانجليزية والألمانية وأخذت أقلب صفحاتها وأقلب
النظريتها وعجبايين وجوه الفتيات الجالسات ، وأنا أدخن غليوني
دون انتطاع حتى زاد ذلك في إجهادي وشعرت بالجوع حقيقة .

فأرسلت أصابعي إلى جيوبى لأستمع باستعراض ما أحمله
من دفتر الشيكات الألمانية . فكانت المأساة أيضاً ! ولكنني
لم أصدق في بادئ الأمر وقوعها ولكنها كانت في كل دقيقة

تستحيل من الظن إلى اليقين ومن الشك إلى التوكيد وما أسرع
أن جف ريقى من هول المفاجئة المفاجئة ، وانظفأ الغليون مشاركة
لى فى المصيبة النازلة وأقفلت كتيبى واستحالت نظراتى الرومانتيكية
إلى نظرات مترددة خاطفة واستحالت نضارة الوجوه التى
كنت مزهوا بالنظر إليها إلى شىء تافه لا يثير إعجابا
ولا يستثير عاطفة .

وكان البحث فى الحقيقة الصغيرة على غير جدوى ،
ثم أسرعت إلى الحقيقة الكبيرة وحملتها إلى ممر العربة وقد
ازدحم بالواقفين والمتنقلين وفتحتها تحت عيونهم دون أن آبه
لملاحظاتهم أو نظراتهم ، ونثرت ما فيها وأنا أرتعش من الغيظ .
وكان البحث جزافا ؛ فلم أجد بداً من أن أخطر ناظر المحطة بالمفاجئة
مؤكداً له أن الحافظة المفتودة قد خلفتها فى استراسبورج . و بعد
أن تركت له عنوانى فى برلين رجعت إلى القطار وأنا خائر القوى
من التعب والجوع والمفاجأة ، إذ لم يكن هنالك بد من أن أفضى
هذا اليوم كاملاً إلى المساء دون طعام حتى يصل صديقى ع
إلى هايدلبرج . ولعل اليأس المطبق فى بعض الأحيان يولد نوعاً

من الأمل إذ أننى بعد أن سار القطار رجعت إلى حقائبي لأعيد
فحصها أو لأتسلى بتفتيشها على الأصح قطعاً للموت إذ لم تكن
لدى رغبة فى الجلوس أو القراءة أو التدخين أو الاستمتاع بشيء
من مباهج السفر — وكما أن المصيبة قد وقعت فجأة فقد هبط
الفرج فجأة كذلك ، إذ وجدت هذا الدفتر المفقود فى
جيب من جيوب السرورال الذى كنت قد بدلتته فى الليلة الماضية ! !
عند ذلك أحسست بأن مباهج الدنيا كلها قد تفتحت من
جديد ، وأحسست بأن الحياة بأحلامها وعواطفها ترقص أمام عيني
وأن لا حاجة لى فى طعام أو شراب .

عودة الى الرفقاء

كان رفيقنا النموى رسول سلام بينى وبين الصديقة الإيطالية
إذ خلق جوا مقبولاً بأحاديثه وملاحظاته ورعايته للطفلة الصغيرة ،
حتى ان هذه السيدة عند ما اخترقنا الحدود اليوغوسلافية تفضلت
ودفعت لى خمسة وعشرين ديناراً على أن تستردها عندما نصل الى
تريستا — ولكن طبيعتها الثائرة وروح العداء الطبيعى بينى وبينها
جعلها لا تهدأ ولا تستقر حتى تسترد مادفعته . ولعلها أحست
بأن هذا الجميل فى غير موضعه ، إذ أننا لم نكد نصل الحدود

الايطالية عند قرية صغيرة حتى أرادت منى أن أترك القطار
لأستبدل تقودى الانجليزية بعملة ايطالية حتى أدفع حقها ، وكان
هذا الجزع البادى على وجهها وهى تدفعنى الى هذه المخاطرة
وازعا الى على التمتع والاستنكار مما زادها غيظا وحنقا ، حتى إذا
ما وجدت أن كل محاولة فى هذا الشأن ميؤوس منها أسقط فى
يدها وراحت تفرج عن نفسها بترديد قصتها القديمة عن رحلتها
فى ألمانيا .

ولقد سمعنا هذه الحكاية المرة بعد المرة حتى أصبحت سقيمة
ثقيلة على السمع فقد كانت تشكو من كل شىء - من صعوبة
السفر ، ومن طول الطريق إلى مصر ، ومن ذلك الاضطراب فى
تغيير العملة أو إخراجها من ألمانيا وهى قصة الليلة السابقة ، ثم راحت
تشتكى أيضا من نظام الباخرة الايطالية التى أصرت على أن تدفع
ثمن تذكرة لطفلتها الصغيرة وهى لا تتجاوز خمس سنين
وكان الرفيق النمساوى على النقيض من هذا مزهوا بكل شىء ألمانى
إذ لم نكد نفارق البلاد النمساوية حتى أخرج من بعض جيوبه الخلفية
صورة للزعيم الألمانى (أدولف هتلر) وراح ينظر اليها فى إعجاب

وقد حرم عليه القانون أن يحمل مثل هذه الصورة في بلاده ، وأخذ
يتنقل بنا الحديث من شأن إلى شأن حتى انتهى بنا إلى الكلام
عن الحروب الأسبانية وفضائنها وفجائعتها التي كانت تملأ الصحف
الأوربية إذ ذاك ، ثم انتقل الحديث من ذلك بطبيعة الأمر إلى
عظمة إيطاليا الحديثة ونهضتها ، وأخذت تقص الحكاية بعد
الحكاية عن أسرار هذه العظمة وهذا النهوض ، وكنت إلى هذه
الساعة لم أكن أعرف خبيثتها إذ كنت أرد على القصة بالقصة
والأمثلة بالأمثلة .

حرب كلامية

ولشدهما آثار غيظي عندما بدأت تقص على تجاربها عن الأمانة
الإيطالية لاسيما في مدينة نابلي التي نعرف ولاشك ما لها من شهرة
عالمية في عالم النصب والتحايل ، فذكرت كيف أنها قد افتقدت
يوما مبلغا من المال في عربة من العربات ، وما كادت تكتشف
أمر ذلك حتى وجدت سائق العربة يبحث عنها ليرد لها هذا
المال ؟ ! لقد كانت هذه الحكايات والمثل أقرب إلى الخرافة منها
بحديث يتقبله العقل أو المنطق ، إذ ما من رائد هبط تلك المدينة

إلا ويقص عليك أكثر من حكاية على النقيض من ذلك

أما أنا فقد أجمعت الرأي على مناقضتها وهدم إعجابها بنفسها
إذ ذكرت لها مارأيت مرة في نابلي وقد هبطت المدينة في
الصباح الباكر ، فاسترعت نظري جماعة من الأطفال يتآمرون
في ركن من الشارع بجوار بائع جوال من باعة الفاكهة . فذهب
واحد منهم وأسرى البائع بشيء حتى إذا تلفت إليه أسرع الآخر
وخطف عنقودا كبيرا من العنب وجرى به وتبعه الآخرون ...

ولم أتورع من ان أخطو في النكاية بها خطوة أجراً من
ذلك ، إذ ذكرت لها حكاية لي في تريستا منذ سبع سنين وقد
وصلت إليها في الليل من باريس بعد أن أرسلت حقايبى الكبيرة
في عربة البضاعة . ودفعت أجر ذلك في العاصمة الفرنسية حتى
إذا ما أردت استردادها طلب منى العامل الانتظار حتى خلا بهو
المحطة من المسافرين ولم يبق أحد في الغرفة غير جمع من الحمالين ،
عند ذلك طلب العامل سبعين ليرة إيطالية أجراً لتسليم الحقايب
فأفهمته بالانجليزية أنني قد دفعت هذا الأجر وأريته البطاقة الخاصة
بذلك ، فتمنع الرجل وتعنت ورفض إلا أن يقبض هذا الأجر دفعته

أم لم أدفعه ، ولما رأى تشبثي تداخل الجمالون معنا في الحديث
ليقنعوني تارة ويهبوني أخرى ، حتى علا الضجيج وهم لا يفهمون
الإنجليزية وأنا لا أفهم رطانتهم الإيطالية ، غير أنني كنت موقناً
بجبيئة أمرهم فاستحالت الأوامر إلى مساومة في الدفع ، وأخذ المبلغ
المفروض يتناقص حتى استحالت السبعون ليرة إلى سبع فقط
دفعتها وأنا كاره حسم النزاع وما يجره النزاع في تلك المحطة المقفرة ..

كان كل ذلك ولا شك عاملاً على إذكاء روح العداة بيني
وبين هذه السيدة لاسيا بعد أن اكتشفت جنسيتها ونحن
على حدود بلادها فاضطرت إلى أن أتراجع بعض الشيء في
هذا الغلو وهذه النكاية . بيد أنني كنت أدعو الله في سرى
أن يهيبني لي من الظروف المؤاتية ما يجعل النصر إلى جانبي ..

فما وصلنا الحدود الإيطالية حتى وجدت أن أساريها قد
تفتحت وأن زهوها بنفسها قد أصبح لا يطاق ، وما كدنا نقف
عند أول قرية إيطالية حتى فتحت النافذة وأخذت تقلب النظر
باعتجاب بكل شيء لاسيا بعامل المحطة ورجال البوليس والجرك
وكانت تحاول أن تستلفت نظري إلى هيئتهم وإلى إناقة ملابسهم
وأنا أتجاهل هذا الأيمان بل كنت أعمل على النقيض من ذلك

فكنت أدمن النظر إلى وجوه بعضهم وقد تركت دون حلاقة
فبدت منابت شعرها الأسود قبيحة . .

ثم توالت المحطات حتى وصلنا تريستا . وقد جرت العادة في
مثل هذه المحطة إذا ما وصل القطار أن يهجم عليه سرب من
الشيالين ويعلو الضجيج وتتطاير الأوامر والنداءات ، ولكن
شيئاً من هذا لم يحدث فقد وصل القطار دون أن يستقبله أحد .

واختفاء وجوه الشيالين نوع من الترحيب الصامت بالقادمين !
لأن الغريب الذي لا يكاد يستقر به القطار ويصادفه جيش زاحف
من الجمالين بوجوههم المغبرة وذقونهم التي لا تعرف الموسيقى وبعيوتهم
الزائغة الحافظة ، هذا الغريب يحس بالفرع يرسب في صميم قلبه

و بعض هؤلاء الشيالين مثال كامل من أمثلة السماجة والقحة ،
فهو لا يتبرع فقط بالاقدام على حقائبك دون أن تدعوه بل إنه
لا يتورع من أن يسيرك ويوجهك حيث يريد ، فاذا تركت
له القياد أجرى بالنيابة عنك سلسلة مجبوكة من الاتفاقات ما
بين شيال وسائق عربة وسيارة ومندوب شركة للسياحة وترجمان
ومندوب فندق من فنادق المدينة . . .

وتراه يتظاهر أمامك بالانهماك الشديد حتى لا يكاد يسمع
لك رغبة أو يصغى لرأى تبديه ، وكأنما هو صاحب مهمة جسيمة
وواجب حرى أن ينصرف إليه دون سواه . وقد يترك الغريب
المسكين اسبب من الأسباب هذا المتطفل الذى لا يتورع من أن
يصدر إليه أمراً بمنح هذا كذا من الفرنكات وذلك كذا
من الليرات ، وهو فى ذلك لا يقبل مناقضة ولا ينتظر منك رداً !

حتى إذا انتهى من ذلك وأسلمك إلى سيارة على باب المحطة
فى صحبة تابع من توابع الفنادق ، وقف ينتظر منك أن تسكيل
له أجرة هذه الادارة التى اضطلع بها ، ومهما كنت كريماً فى
تقديرك فهذا التقدير لن يبلغ السكم الذى يريده منك !

كان من الغريب حقاً أن تجد محطة تريستا فى تلك الساعة
خلوا من وجوه هؤلاء الشياطين . . . ولكن هذا الخلو لم يكن إلا
لسبب مجهول من الأسباب إذ أننا لم ننتظر قليلاً حتى بدأ زحف
هذه الفرقة وهى مجهزة بالأحزمة الجلدية والحبال وعبات اليد .
وكان على أن انضم إلى جماعة من الجماعات لنحمل حقائبنا
فى عربة واحدة من عربات النقل إلى الميناء ، لأن هؤلاء الشياطين

يجمعون ما على الرصيف من حقائب يكومونها عشرات بعضها
فوق بعض حتى يصبح من العسير أن تكشف عن حقيبتك في مثل
هذا التل من الحقائب الجلدية المتشابهة .

ووجدت هذه الجماعة في عائلة ألمانية مسافرة معنا إلى الشرق
أكثرها من السيدات ، فجعلت نفسي ناصحاً لها وحارساً عليها
ومندوباً بينها وبين رجال المحطة وكلهم يعرفون الألمانية ؛ إذ أن
تريستا منفذ لأهل ألمانيا النازحين إلى بلاد البحر الأبيض وإلى
بلاد الشرق الأدنى ؛ وهي مازالت تحتفظ بتراثها الألماني منذ
ان كانت مدينة نمسوية منذ نيف وعشرين سنة ؛ ولو أن مجهوداً
جباراً يبذل في سبيل هدم هذا التراث .

فعل التاريخ

وفي رودس رأينا كذلك كيف تمثل هذه الرواية بعينها ، وكيف
يقضون على كل تراث تركي اللهم إلا الذي تحميه الطبيعة ،
فالكتابة العربية لم تبق إلا آثارها منقوشة على أحجار المقابر
أو حيطان القلعة القديمة ، والحى التركي القديم بدروبه الضيقة
سائر إلى الزوال وقد حرم من كل معاني الحياة ، ولكنه مع
ذلك يهر الزائر ويوحى إليه بامتع الذكريات وإن كانت من مطبغة

بكثير من الحسرة التي يولدها العفاء والفناء ، إذ أن رودس الإيطالية
الحديثة بمبانيها وعمائرها ومتاجرها ومقاهيها ومساحها لا تفعل
شيئاً من هذا ، إنها تبدو كالغنى المحدث في ثراه لم تخلد فضله بعد
يد الزمن ، ولم يصبغها التاريخ بروائه وعظمته

الدين

كان تسديد ذلك الدين من الدنانير اليوغسلافية آخر
ما كان ير بطني برفيقتي الإيطالية ، وكانت حريصة جد الحرص
على استرجاع مالها ، ولم أكن أقل منها حرصاً على رد هذا الحق
لأنه من هذه الصحبة التي لم أكن راغباً فيها .

فما وضعت حقيقتي الكبيرة بين عشرات الحقائق التي
حزمت إلى الميناء حتى كانت إلى جانبي تستحني على تغيير
مامعي من ماركات ألمانية إلى نقد إيطالي . ومن عجيب
الأقدار أن كان ذلك اليوم فاصلا بين نظام ونظام في أثمان الليرة
الإيطالية التي هبطت هبوطاً جسيماً في الليلة السابقة ، حتى أن
الحكومة أوقفت البنوك خوفاً مما يحدث في مثل هذه الأزمات
من اضطراب . وكان علينا أن نستبدل نقودنا الأجنبية بالقيمة

القيمة ، ومع ذلك لم أبتئس لأن جماع ثروتى كما عرف القارىء
لم تعد فى ذلك اليوم عشرة شلنات .

ثم إننى دفعت إلى مدينتى ست ليرات قيمة ما استعرتة منها
بيد أنها كانت ولاشك تطمع فى أكثر من هذا القدر بكثير ،
لأنها ما كادت تتسلم هذه الليرات حتى ثارت وماجت واحتجت
بكل لسان وراحت تعنفنى بقسوة على هذا النكران وهذا
الاستغلال القبيح من جانبى ، وما كان لها أن تستمع إلى شرح
أو تفسير عن قيم النقد ونسب العملة الأجنبية ، لأنها لم تكن
تنشد حقاً معيناً بل جزاء ومكافأة ؟

ثم إنها أعرضت عنى استهتارا وغيظا وقدمت إلى عامل
الخزينة بعض مامعها من نقود نمسوية ويوغسلافية لاستبدالها ،
فهز الرجل رأسه ورفض أن يستبدل هذا النقد ولم يرض إلا أن
يأخذ نقداً إنجليزياً ، فراحت توضح له وتستوضحه ، وتفسر له
وتستفسره بكلام طويل عريض ، ولم يزد الرجل على هز رأسه
وبقى مصراً على الرفض .

واستحالت المناقشة إلى جدال عنيف جمع حولنا لقيفاً من

النظارة ، فركت أمر حقائي ووقفت لا أنظر كيف ينتهي هذا الصراع
فقد تحققت فرصتي التي كنت أرقبها من الليلة الفائتة . ولعلها
شعرت بابتسامتي التهامية وما كان يبدو عليّ من غبطة لهذه
النتيجة ، فعز عليها أن تتمن هذا الامتحان وهي في بلدها الذي
كانت تفخر به أمامنا حتى مجئنا حديثها ، إذ أنها أسرعت إلى اثنين
من ذوى القمصان السود الذين لا تخلو منهم محطة إيطالية
وراحت تستنجدهم وتطلب معونتهم ، ولم يكن حظها مع معينها
موفورا كذلك ، إذ أن الرجلين رفضا الانتقال أو الاصاخة إلى
رغبتها فلم تجد بدا من الرجوع خائبة غاضبة .

ثم إنها رجعت إلى حيث الشياطين وأنا أتبعها مغتبطا لأرى
ما يكون من أمرها ، فطلبت من حاملها نمرته إذ لم يكن يعلق إشارة
مميزة على صدره كما جرت العادة ، فرفض الرجل ذلك وأصر على
الرفض ، وخيرها بين حمل حقائبها دون إجابة وبين رفض حملها
فلم تتحمل هذا التحدي الجديد فأشاحت بوجهها ونظرت إليه
وهي تسب الرجل بالفرنسية بأقذع الألفاظ .

لقد كانت تلك فرصة عظيمة حقا . . .

إننا لاندرى كيف يجمع السفر ويقرب ما بين الغرباء . . الغرباء الذين قد نحكم عليهم بالسخف أو نقابلهم بالاستخفاف ولكننا سرعان ما نكتشف مبلغ هذا الخطأ في الحكم ، سرعان ما نكتشف أن صاحب هذا الوجه العبوس يحمل قلبا ضاحكا وصدرا مفتوحا .

عند ما وصلت الى بوخارست منذ بضع سنين صحبتني في القطار رجل ماظننت فيه الخير أو العطف فجأفتهه وقاطعته إلا حيث قضت الضرورة اللازمة . فلما وصلنا المدينة كان عليّ أن أترك حقائبى لأتعرف أسرار هذه المدينة الجديدة جريا على عادتي في السفر ، وكان عليّ أن أدفع أجر ذلك بالنقد الرومانى ولم يكن معى منه قليل أو كثير ، ولما كان الوقت ظهرا كان من المحال أن أبدل بعض مامعى من عملة أجنبية إذ البنوك مغلقة ، وأبى العامل إلا تعنتا ، فما كان من ذلك الرفيق المجهول إلا أن تقدم ودفع ثمانى ليات أجر هذه الحقائب ، وأبى أن يأخذ قيمتها أو ان يرتبط معى بوعدها ، بل دفعها باسمها شاكرا متمنيا لى إقامة سعيدة وتركنى حائرا مفكرا .

وبعد ذلك بأربع سنين كنت في الطريق من لندن إلى

بروكسل وكان معي في العربة شاب أنيق جد الإناقة من الذين
يعنون بحمل ساعة ذهبية وخاتم من الماس في الخنصر ، فوثقت
انه من طلاب المدارس العامة مدارس الطبقة الارستقراطية
الانجليزية التي ترسل أبناءها إلى أورو بالدراسة اللغات وللرياضة ، مما
لايعنى به الا الانجليزى الارستقراطى . ولكن هذا الافراط فى
التألق لم يعجبني من هذا الشاب ، فلما وصلنا دوفر أقلعت بنا الباخرة
بعد منتصف الليل واختفى عن وجهى هذا الشاب حتى وصلنا
بروكسل فى ضحى اليوم الثانى .

مررت به فى بهو المحطة وقد هدا بعض نزقه وكانت تبدو
عليه بعض علامات الحيرة والاضطراب ، فلما حاذيته أبدى رغبة
فى التحية فتبادلناهما ثم راح يسألنى عن القطار المسافر إلى
سويسرا عن طريق بازل ، ثم تدرج بنا الحديث إلى أن عرفت
أن هذا القطار قد فاته ولم يبق إلا قطار الليل ، كما عرفت أنه
سويسرى الأصل من عائلة كريمة وهو فى طريقه إلى وطنه بعد
رحلته فى إنجلترا ، ثم عرفت أن مابقى معه من نقود قد استنفدها
فى ليلته السالفة بين أصحاب وصاحبات .

وكان ولاشك صادقا فى كل قوله ، وكان على ولاشك أن

أكون إلى جانبه فدفعت له أجر الخقائب ودعوته إلى طعام الإفطار في المدينة كما جلت وإياه في شوارعها فلما ودعته أكدت عليه بقبول بضع فرنكات كان ولا ريب في حاجة إليها ولم أرد أن أترك لديه اسماً وعنواناً حتى لا أثقل عليه بالرد أو الشكر ، وكنت أتمثل أثناء هذا ذلك المجهول الذي أقال عثرتي في بخارست وشعرت بأني قد أدبت دينه فأحسست براحة وسعادة . . .

أمام المصرف

ومالي أن أنفرد بذكر بخارست وأنسى ليلة نابغية في بروكسل نفسها منذ بضع سنين قضيتها مع صديق بجيوب خالية . حدث ، كما يجري في كل مكان وزمان أن رحل طالبان إلى مصيف من المصايف الأنيقة المعروفة ، وكان هذا المصيف أوستند على الشاطئ البلجيكي ، وفي هذه المصايف الأنيقة ينسى الشاب نفسه ويتولد نوع من الثقة بين الرفيق ورفيقه ، فإذا تورط الواحد منهما وثق بأن صديقه لاشك سيقبل عثرته ويرفعه من كبوته .

وعلى هذا الأساس أخذ كل من الرفيقين ينفق مافي

الجيب وهو واثق جد الثقة بأن صديقه سوف يكون إلى جانبه
إذا أهاب به :

وفي مرقص « الطاحونة الحمراء » جلس الرفيقان وكل منهما
يجاهد نفسه لسؤال رفيقه ، فمأن بدأ صديقي بالسؤال حتى أغرقت
في الضحك فلم يمالك نفسه عن مشاركتي في هذه الموجة المرخة
المفاجئة دون أن يعرف جليلة الأمر ، ذلك لأنني كنت أفضى جيبا
من هذا الرفيق السائل ؛ ولاشك أن المفاجأة كانت قاسية
ولكنها لم تثر الا الضحك والمرح ، ولم تفعل إلا أن تركنا هذا
المرقص وأخذ كل منا يحصى ما بقى معه من دراهم وسحاتيت . .
وفي الصباح خرجنا إلى بعض البنوك الانجليزية ورغبت في مقابلة
مديره فعرضت عليه أن يرسل في طلب مبلغ من المال من بنك
أعماله في لندن وأن يطلب ذلك برسالة برقية لأن حاجتي ماسة ،
إنني لن أنسى هذا الشاب الانجليزي الأنيق الرقيق ، لقد
كان مثالا للانجليزي « الجنتمان » لقد حياني بكل عطف ، حتى
أنه أخرج من جيبه الخالص مبلغا من المال وطلب مني أن أقبل
ذلك سلفة صديق إلى صديق حتى تصل نقودي من لندن . . .
ولكنني رفضت شاكراً مع شدة الحاجة .

ولأذ كر كيف تحايلنا علي قضاء ذلك اليوم في بر كسل دون
فرنك كامل في جيب كل منا ، إلا أن ما أذ كره هو أن صديقي
قد وجدته في المساء يزحف علي بطنه تحت سريره باحثاً منقباً
عن عشرة سنتيمات كانت قد تدرجت منه في أيام عزه ، وأذ كر
أننا في اليوم الثاني قد استيقظنا في الصباح الباكر قبل أن
تفتح البنوك بساعتين وكان اليوم ممطراً وبارداً فأخذنا نتجول
في حدائق القصر الملكي ونحاول الاستمتاع بجمالها ببطوننا
الخاوية وملابسنا المبللة ، فلما لم نعد نطيق البرد والمطرا كتشفنا
متحفاً مجاوراً من متاحف الصور المجانية فقضينا فيه ساعة.

حتى إذا دقت العاشرة كنا أول من ولج باب البنك الزجاجي
وكان ظرف ذلك المدير الشاب فوق كل وصف ، فلم نجد إلا صدرا
مفتوحاً ومساعدة ما أشد حاجتنا إليها :

هواة الأرقام

نعم ما أخسر قيمة الأعداد والأرقام في السفر ، فإذا قيل
« إن الأرقام تتكلم » فلا شك أنها تتكلم كلاماً لا يتصل بحقيقة
أو واقع ، فكم من مسافر قد مضى أياماً يحسب ويدون ويفاضل
ويقارن حتى إذا انتهى ظن أن هذه العماليات التي في مذكرته

قد تسيطر على جيوبه حتى أصبح من العسير أن يخرج قرشاً
واحداً ما لم يكن له بند معين بين هذه الأرقام :

ولكن الحقيقة غير هذا ، الحقيقة التي يعرفها كل مسافر
مجبب أن القضاء والقدر يلعبان دورهما في شئون المسافرين ، فقد
تهبط على حساب المسافر الرحمة كما قد تكتسح هذه الأرقام موجة
جارفة أو نزوة تأتي على كل ما في الجيوب ، والمسافر أمامها عاجز عن
أن يدفع عن نفسه خطر هذا البلاء !

أعرف أنواعا من المسافرين قد انقلب فيهم هذا الميل إلى
الأرقام وإجراء العمليات الحسابية لوثنة وضربا من الجنون ،
فالواحد منهم يقضى أياما طويلة قبل سفره وهو يعد كشوفات بما
يطلب وبما يحتاج إليه ، ثم تراه يدور على مكاتب السياحة يحمل
الأدلة والخرائط وصور السفن وأثمان التذاكر حتى تتجمع لديه
كمية وفيرة منها . وإذا انتهى من ذلك راح يدرس هذه الوثائق
ويدون المسافات والأبعاد والأثمان والمواعيد في مذكرة الخاصة ؛
وإذا انتهى من كل هذا واجه المشكلة العسيرة وهي شئون المال ،
فيغنى وقتئذ بما ينشر في الصحف عن أثمان العملة الأجنبية ، وقد
لا تراه يأمن للصحف إذ أن الأخطاء المطبعية أشد خطرا في الأعداد

منها في الحروف — فيدور حول المصارف يسأل ويقارن ويفاضل .
وإذا جاز هذه المرحلة بسلام وقدر بصفة جازمة ما يكون
في حاجة اليه من مال في رحلته ، يحدث عادة أن يصطدم منذ
اللحظة الأولى بالحقيقة الجامدة فتتهدم أعمدة الأرقام التي بناها
في أيام طويلة .

فتستحيل هذه اللوثة باجراء العمليات الحسابية إلى ضرب
من الخبل . فترى هذا المسافر يقضى وقته على ظهر الباخرة أو في
القطار يراجع ويصحح أرقامه وقد يعد ما في جيبه مرة بعد
مرة ليستوثق أن الأرقام لاتغشه ، وهو في كل خطوة يسير من
خطأ إلى خطأ حتى يشعر بأن مايدونه كل ساعة على هوامش
الصحف والمظاريف ليس إلا لهوا بريئاً وليس بحقيقة واقعة .
إلى البحر

أما اليوم فكان من أيام الشتاء العابسة ، محجوبة شمسها ، هائلة
سماؤه ، وكانت الرياح تدوى في الفضاء وكأنها تردد دفعات
الأمواج المزبدة الصاخبة فتبعث في نفس المسافر شعوراً مقبضاً ،
حتى أن مياه المطر لم تصل إلى الأرض إلا إذا وادفرت بها الرياح
العاصفة ، وكان السير على رصيف الميناء الجرداء جهادا مع الرياح

والمطر والبرد ، وكانت الباخرة ترسل دخانا أبيض ضعيفا ولا تكاد ترى مستقبلا أو مودعا ، لقد كانت تبدو من بعيد كأنها الحمامة العجوز وقد جثمت في فجوة حائط حذرا من البرد والمطر .

أى شعور يتملك النفس عندما يرى الغريب أن لاشيء يحجبه عن وطنه الا هذه الأتomial من المياه الزرقاء ؟ وليس عجيبا أن تجد من يقف محمقا الى الأفق البعيد بعين ساهمة ونفس مضطربة كأنه ينظر الى أرض الوطن وهو يعرف أن أميالا طويلة لاتصل إلى نهايتها عينه المجردة هي التي تفصله عن وطنه . . .

لقد كانت قاعة الجمر عظيمة ، لقد كانت جدرانها زاهية بديعة وكان جميع ما فيها حديثا مبتكرا ، نعم إنها أدت رسالتها فجعلت هؤلاء الأجانب يفحصون أركانها بدهشة و إعجاب ، ورحنا نضرب في أرجائها الواسعة الفارغة ولا نسمع إلا صدى أقدامنا .

وجالست كل جماعة منا في ركن من أركان المكان ننتظر حقائبنا ، وقد كان انتظارا طويلا ، حتى إذا سمعنا دوييا في الطريق أسرع بعضنا ونظر من زجاج النافذة ثم عاد يهز رأسه سلبا ويفرك يديه . . .

وفي « بار » أنيق وقف ضابط إيطالي يتحدث همسا إلى خادمة
المشرب وقد اتكأ على المنضدة العالية وأخذ يرشف بخفة واستمتاع
من كأسه الصغير الملون ، إذ أن خلو المكان وإبداع تنسيقه يولد
مثل هذه الرغبة إلى التسارر في الحديث والاسترسال في الوقوف .

وعلى باب هذه الغرفة الزجاجي جلست راهبتان بملابسهما
الكثيفة تتحدثان في خفية ، وتسترقان النظر إلى الضابط وصديقته
الخدامة ، فاذا ضحكا غبطة وفرحا نظرت كل راهبة إلى أختها
نظرة صامتة وقطعتا حبل الحديث وأخفت وجهها في أكمامها
الواسعة ؛ ومن يدري ما يجول من خواطر أو ذكريات أو آمال في هذه
النفوس التي قطعت على نفسها عهدا أن تهجر الحياة وهي ما فتمتت
صاخبة متفجرة حولها .

ثم إنني جلست إلى جانب الباب استقبل وفود المسافرين
أقارن بين الوجوه وأفرق بين الأزياء وأرد كل وجه إلى وطنه .

ثم دوت فرقة رجت لها هذه القاعة الواسعة وتجاوبها مئات
من ألواح الزجاج ، ثم تبعث هذه الفرقة رنات عشرات من
الأجراس تدق اثنتي عشرة دقة بكل صوت ونغمة :

لقد انتصف النهار .

ولقد انتهى اليوم ..

يوم في أوروبا ..

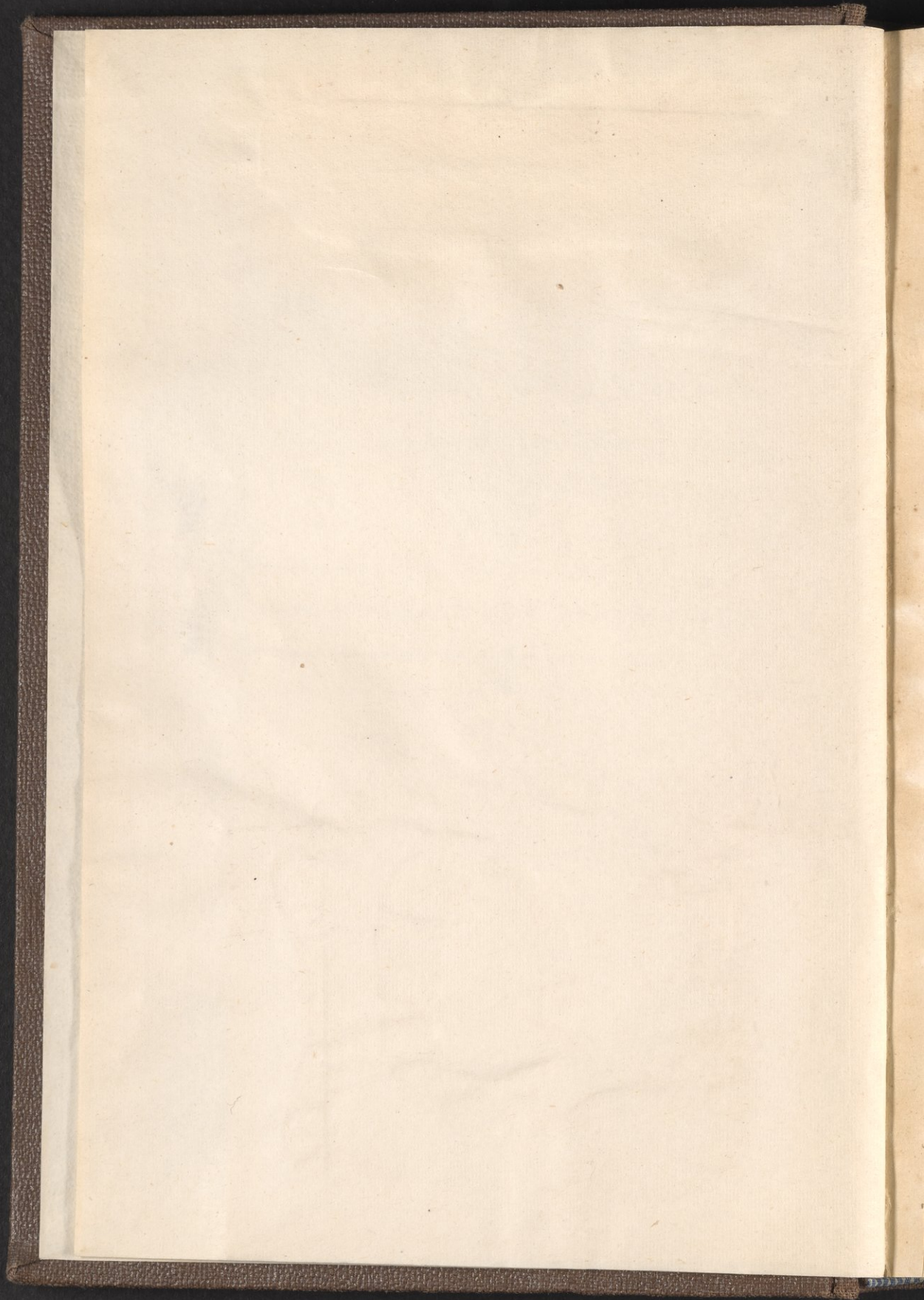
ثم نظرت إلى ساعتى ودفعت عقربها البطيء خمس دقائق .

يصدر بقلم المؤلف

يَوْمِيَّاتِ طَالِبِ مِصْرِي

في لندن

تنشره مكتبة الانجلو المصرية



DATE DUE

1974

MAY



24319

D
921
A75x
1937



